

رحلة چوزيف بتس

(الحاج يوسف)

إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة

ترجمة ودراسة

د. عبد الرحمن عيسى الشيخ



الهيئة المصرية العامة

١٩٩٥

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلة البداة

رئيس التحرير
لمسعى المطيعي

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني:
علياء أبو شادي

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

**A faithful account of the religion and manners of
the Mahometans, ... and apilgrimage to Mecca ... and
a description of Medina.**

by

JOSEPH PITTS

الفهرس

الموضوع	الصفحة
جوزيف بتس ورحلته بقلم المترجم	٧
الترجمة الكاملة لنص رحلة جوزيف بتس	١٩
الحج الى مكة	٢١
التعليقات	٧٧

جوزيف بتس ورحلته بقلم المترجم

ترجع أهمية رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى مصر والديار المقدسة سنة ١٦٨٠ الى أن بتس هو أول انجليزى فى التاريخ الحديث يزور مكة المكرمة (١) ، كما أنه أول رحالة فى التاريخ الحديث يصف طريق الحج الغربى ، أو درب الحجاج (البرى والبحرى) من بلاد المغرب - مرورا بمصر - حتى يصلوا الى الديار المقدسة ، ويجد قراء العربية كثيرا من المعارف عن درب الحج الشامى ، أى قوافل الحج القادمة من الشام ودرب الحج العراقى (٢) ، لكنه - أى القارئ العربى - لا يكاد يجد شيئا عن درب الحج أو دروبه القادمة من المغرب مارة بمصر ، وسيجد القارئ أن الحجاج كما كانوا يعانون من هجمات بدو الصحراء ، فانهم أيضا كانوا يعانون من الهجمة أثناء سير سفنهم فى النيل من رشيد الى بولاق .

واذا كان جوزيف بتس هو أول انجليزى (وثانى أوروبى) يزور مكة المكرمة فى التاريخ الحديث (٣) ، فهو أيضا أصغر رحالة ، حتى اننى كدت أجعل عنوانا لترجمتى هذه (رحلة الصبى جوزيف بتس لمصر والديار المقدسة) . لقد ولد جوزيف بتس فى اكسون Exon بانجلترا ودفعه ذكاؤه وحبه للمعرفة - فيما يقول الرحالة بيرتون - الى مغادرة انجلترا سنة ١٦٧٨ وهو لا يزال غض الالهاب لم يتجاوز الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، ليرى

العالم من حوله ، وعمل بحارا - وهو فى هذه السن - على احدى السفن ، وكانت حروب الجهاد البحرى التى يشنها البربر وبقايا المسلمين المطرودين من الأندلس ، والترك - لا تزال مستعرة فى البحر المتوسط ، - ومن المعروف أن المؤلفين الأوربيين يطلقون اسم القرصنة على حرب الجهاد البحرى تلك - والذى يهمنى فى هذا الصدد أن هذه الظروف أدت الى وقوع جوزيف بتس فى أيدي أحد البحارة الجزائريين ، فاتخذة عبدا ، وعاش العبد بتس فى كنف سيده بضع سنين ، ثم اصطحبه ليحج معه الى مكة (المكرمة) وليزور المدينة (المنورة) * وسلك بتس مع سيده طريفا بحريا الى الاسكندرية فرشيد ، ثم أبجرا فى النيل للقاهرة ، ومن ثم للسويس فالطور فرايغ على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، فجدة وهناك استقبله المطوفون وصحبوه الى مكة المكرمة ، وبعد أداء الحج زار المدينة المنورة وعاد للقاهرة ، وأصيب بالطاعون فى الاسكندرية ، لكنه شفى فى الجزائر *

لقد كان مجمل الفترة التى قضاها بتس فى بلاد المسلمين - خاصة الجزائر - يصل الى خمسة عشر عاما ، فبعد وقوعه فى الأسر قضى فى كنف سيده - كما سبق القول - بضع سنين ، وبعد أدائه لفريضة الحج أعتقه سيده واعتبره بمثابة ابن له ، وكتب له ما يفيد عتقه ، وعاد بتس - باختياره - الى الجزائر وعاش مع سيده السابق سنوات طويلة قبل أن يفكر فى الهرب ، وهذه المدة الطويلة كانت كافية - فيما يقول الرحالة العالم رتشارد بيرتون - كى تجعله ملما بكثير من المعلومات عن المسلمين وعن أحوال البلاد التى رآها - رغم أنه لم يحظ بقسط كاف من التعليم * فكتابات - فيما يقول بيرتون - تخلو من الأحكام المسبقة والتعصب والميل للخرافة كما أنه ليس ساذجا - رغم صغر سنه - ولا سريع التصديق * ورغم أقوال بيرتون تلك - وهو رحالة متعاطف مع العرب والفكر الاسلامى - فإن

بتس قد وقع في جملة اخطاء سنعرض لها في سياق هذا البحث * لكن بيتس - على أية حال - لم يقع في الاخطاء نفسها التي وقع فيها الرحالة الذي سبقه ، بسبب معرفته - بحكم الاقامة - للغتين العربية والتركية .

وقد كان سيده قائدا لكتيبة خيالة (فرسان) ، وكان أثناء شبابه - كما روى بيتس - رجلا خليعا لم يترك منكرا الا فعله ، ولا اثما الا اقترفه ، كما كان قاتلا ، فلما تقدم به العمر قرر أن يكفر عن آثامه الماضية بدعوة عبده للاسلام وكانت الدعوة للاسلام في نظر هذا التركي لا تعنى أكثر من ثلاثة أمور :

١ - أن يشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وقد فعل ذلك وهو يشير باصبعه السبابة عند قوله لا اله الا الله .

٢ - أن يخضع لعملية الختان .

٣ - أن يمتنع عن أكل لحم الخنزير .

لكن بيتس يقدم لنا دليلا على أن الدعوة للاسلام ولأى دين آخر ، لا بد أن تكون بالاقناع لا بالضغط المادى أو الاقتصادي أو أى ضغط آخر ، فان بيتس - الذى يحدثنا عنه يرتون قائلا انه كان يكره الكاثوليكية كراهية شديدة لا تقل عن كراهيته للمذاهب المسيحية فى الشرق - يفخر بأن اجباره على التحول للاسلام لم يغير شيئا فهو كان يصلى بغير وضوء أو طهارة وكان يجد سعادة غامرة عندما يسمع عن وصف المسلمين بأنهم يهود أو كاليهود ، ووصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل السبت أى يهودى Sabbatero ولهذا التحامل تفسيره التاريخى الذى سنفرد له فقرات فى هذه الدراسة * كما كان - أى بيتس - يأكل لحم الخنزير بشراهة عندما يكون منفردا .

وقد أحزن بيتس كثيرا ان يجد كثيرين من الأوروبيين يعمدون للجزائر باختيارهم بعد أن أتيحت لهم فرصة التحرر ليعتنقوا الاسلام بقناعة كاملة دون أى ضغط عليهم .
« ... Without the least force used towards them » .

ويقرر بيتس - بوضوح كامل - أن حالته تعتبر استثناء من قاعدة ، فهو لم ير ولم يسمع ان المسلمين أجبروا أحدا على التحول للاسلام في الجزائر او مصر أو الحجاز .

ويستخدم بيتس الألفاظ الشائعة في عصره على المستوى الشعبي فهو يطلق على المسلمين أحيانا Moors ، وهو الاسم الذى شاع في أوروبا بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلمين ، وأحيانا Turks وهو الاسم الذى شاع في أوروبا بعد سقوط القسطنطينية للدلالة على المسلمين ، ولكن رحالتنا يضيف اسما جديدا وهو « أصحاب السبت » لا ليقصد اليهود وانما ليقصد المسلمين لأسباب ستوضحها .

وقد أتيحت لبيتس فرصة الهرب عندما أرسل السلطان العثماني للجزائر طالبا سفنا ، وسمح لهذا الانجليزى المتحول للاسلام بالركوب على متن احداها ، بناء على خطاب توصية من السيد باكر Baker القنصل الانجليزى في الجزائر ، الى السيد راى Raye القنصل الانجليزى في تركيا .

ولقد تردد بيتس كثيرا في الهرب ، وراح يطرد أفكار العودة الى انجلترا مرارا ، بل وفكر في العودة للجزائر والعيش كمسلم بقية حياته ، ولكنه تغلب على هذه الأفكار فى النهاية ، فبعد فترة عناء فى تركيا أعانه أحد التجار الانجليز بأربعة جنيهات استرلينية ساعدته فى السفر الى جنوة Leghorn فى سفينة فرنسية ، ولما وصل الى هناك سجد لله شكرا لعودته لأرض المسيحية الأوروبية ، فجاب إيطاليا وألمانيا وهولندا واستقبل بعطف وترحاب فى هذه البلاد ، لكنه عندما عاد لانجلترا واجه بعض المتاعب فندم على تركه

للجزائر ، لكن أموره استقامت بعد ذلك ، اذ قابله أبوه
بعواطف جياشة أما أمه فقد ماتت قبل وصوله بقراءة عام .

وقد أصدر يوسف بتس بعد أن ازداد علما وثقافة كتابا
أسماه (حقائق عن الاسلام) أصدره سنة ١٧٠٤ في لندن
— أى بعد رحلته بأكثر من عشرين عاما ، وقد تعرض فيه
لنظام الحكم في الجزائر في ظل العثمانيين ، ومما يؤسف
له أنني لم أتمكن من الحصول على هذا الكتاب أو قراءته (٤) .

الظروف التاريخية التي تمت فيها الرحلة :

تمت هذه الرحلة كما سبق أن أشرنا سنة ١٦٨٠ ، وفي
هذه الفترة كان الصراع لا يزال مستعرا في منطقة البحر
المتوسط بين البربر والمورسكيين — وهم المسلمون الذين
طردوا من اسبانيا — تآزرهم الدولة العثمانية — من ناحية ،
وقوى الاستعمار الأوروبي ممثلة في أسبانيا والبرتغال
خاصة من ناحية أخرى ، وان دخلت سائر القوى الأوروبية —
بشكل قل أو كثير ، لسبب أو لآخر في هذا الصراع (٥) .

والذى يهمنا في هذا الصدد تأثير ذلك على أفكار رحالتنا
بيتس وأسلوبه ، اذ نجده — كما سبق أن وجدنا عند سلفه
فارتيم (٦) — يستخدم كلمتي moors و Turks ليعنى بهما
المسلمين ، بل انه يقول عن شخص تحول للاسلام بأنه أصبح
تركيا .

والشئ الطريف في هذه الرحلة أن رحالتنا بيتس
عندما كان يريد أن يصب جام غضبه على أهل المناطق التي
مر بها في الجزائر أو مصر أو الحجاز ، فانه كان يصفهم
بأنهم « أصحاب السبت » ، وعندما يتحدث عن يوم الجمعة ، يقول :
« وهو يوم سبتهم » أى يوم عبادتهم their Sabeth ، بل انه
عندما أبدى بعض عبارات الكراهية لسيدنا محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وصفه - كذبا - بأنه سبتي والكلمة
تعنى أنه يهودى أو كاليهودى Sabbatero ، وفى المقتطفات
التي رجعنا اليها فيما كتبه عنه بيرتون عرفنا أن أشد ما كان
يؤرقه عندما هرب من سيده الى تركيا أن يموت فيدفن فى
مقابر اليهود ، وهو هنا يقصد المسلمين لأنه من المفترض أن
الجميع يعلمون باسلامه وأنه الحاج يوسف *

ترى ما سر هذه الكراهية الشديدة التى يكنها بيتس
لليهود ؟ فمع أنه لم يكن كاثوليكيًا - بل لقد اشترك فى
الحرب ضدهم (٧) - ولم يكن يميل لمسيحيى الشرق - فيما
يقول الرحالة العلامة بيرتون - الا أننا لا نشتم فى رحلته
نقدا لهم ، وانما اكتفى بين الحين والآخر بتشبيه المسلمين
تشبيها ضمنيا باليهود *

لا يمكن فى الواقع فهم ذلك دون المام بالظروف التاريخية
التي تمت فيها الرحلة ، فقد كانت أوروبا كلها فى ذلك
الوقت تنظر للمسلمين كحماة لليهود ، فالدولة العثمانية
والعالم الاسلامى هو الذى استقبل اليهود المطرودين من
أسبانيا فى حين رفضتهم أوروبا كلها (راجع ترجمتنا لكتاب
بول كولز : العثمانيون فى أوروبا - العدد ١٢٦ من هذه
السلسلة) ولم تكن أوروبا كلها راضية عن هذا التحالف (٨) ،
وقد أصبح من المؤكد من خلال بحوث وثائقية واحصائية أن
الكراهية الأوروبية بل والاسبانية كانت موجهة أساسا - فى
هذه الفترة التى امتدت زهاء قرنين - لليهود وليس للمسلمين ،
فلم يكن اخراج المسلمين من الأندلس عقب سقوط غرناطة
مطلبيا شعبيا وانما كان عملا قاداته مؤسسات متعصبة ،
وعارضة العامة من الناس وعارضة حكام الولايات ، كما
عارضة بشدة أصحاب الأراضى الاسبان (٩) ، فقد كان العداء
موجها لليهود بشكل أساسى لأسباب اقتصادية فى المقام الأول
والذين أجبروا على الخروج من غرناطة هم اليهود * أما
المسلمون فقد ترك لهم فى البداية حرية الاختيار بين الإقامة

والرحيل وبعد ذلك بفترة انحصر الاختيار بين الرحيل وقبول التعميد ، وفى مطلع القرن السابع عشر أجبروا جميعا على الرحيل ، وكانت السلطات تستعين بقوات من خارج اسبانيا لترحيلهم لرفض الاسبان القيام بهذا العمل ، لأنهم كانوا يعتبرون اخراج المسلمين نكبة تضر بالاقتصاد الاسبانى ، وهذا ما أثبتته التاريخ بعد ذلك .

لقد استخدم رحالتنا بيتس - اذن - مفاهيم عصره ومصطلحات عصره ، ولم يكن سعيدا بهذا التحالف ، خاصة وأن الاصلاحيين الدينيين وفى مقدمتهم لوثر أشاروا بوضوح فى بداية الحركة الاصلاحية الدينية الى خطورة الممارسات الاقتصادية اليهودية على أوروبا ، ووصل الأمر بمارتن لوثر الى تحريم الربا Usuary (١٠) ، لكن الأمور بعد ذلك - على أية حال - سارت مسارا مختلفا ، وتلك حكاية أخرى لم تدرس بعد دراسة كافية رغم أهميتها .



بعض ما أضافته رحلة بيتس للتاريخ المصرى فى القرن السابع عشر :

● ماء النيل ، وكيف يسرقه أهل جنوة والبندقية :

ومن المعلومات الطريفة والجديدة التى أوردها بيتس أن أهل جنوة والبندقية - فى النصف الثانى من القرن السابع عشر على الأقل - كانوا يرسلون سفنا الى قرب مصب نهر النيل للملئها بماء النيل العذب . . يقول بيتس : « . . وأظن أننا قطعنا من الاسكندرية حوالى خمسة فراسخ أو ستة فى اتجاه الشرق ، قبل أن نصل الى مصب نهر النيل الشهير فى البحر المتوسط ، حيث وجدنا لون الطمى يكاد يصبغ البحر المتوسط بلونه ، ويغير طعمه من الملوحة الى العذوبة . ولقد

شربت من ماء النيل وأنا على مسافة غير قليلة داخل البحر المتوسط ، فلم أجده مالحة البتة ، وقد عجبت لذلك كثيرا وتأكد لدى ما كنت أسمعه . وقد أخبرنى ثقات أن أهل جنوة والبندقية يحصلون فى أغلب الأحيان على الماء العذب من مصب النيل ، وهم يفعلون ذلك دون التعرض لآى خطر فليس لدى الأتراك أساطيل للدفاع عن ساحل مصر » . .

● بعض المصاعب التى يواجهها الحجاج أثناء الرحلة النيلية :

وإذا كانت كتب الرحالة قد أفاضت فى الحديث عن المتاعب التى تواجهها قوافل الحجاج فى شبه الجزيرة العربية بسبب هجوم البدو ، فإن بتس يحدثنا أن سفن الحجاج فى النيل تتحسب كثيرا لسرقات اللصوص الذين يكثرون فى هذا الوقت ، لعلمهم أن الحجاج يحتفظون معهم ببعض الأموال .

● عن الحياة الاجتماعية فى مصر :

ويأسف بيتس لشيوع الفساد فى القاهرة ويعتقد أن السلطات تشجع ذلك (كانت مصر — كما هو معروف تابعة للدولة العثمانية منذ سنة ١٥١٧ ، وإن ظل الحكم الفعلى للمماليك) ، ويصف بيتس الداعرات وصفا طريفا فيه بعض التفصيل ، ويتحدث عن اختلال الأمن وخطورة مغادرة الخان بعد الغروب (بعد ايقاد الشموع) كما يتحدث عن كثرة الغش وكثرة المتسولين ، ويحدثنا عن سوق الجوارى وكيف أنه من حق المشتري أن يعرف ان كانت الجارية التى سيشتريها عذراء أم لا وذلك بدون تطرف ، ويورد بعض التفصيلات عن شيوع الطاعون فى مصر ١٦٨٠ بعد عودته من مكة المكرمة وكيف أنه كان يحصد الناس حصدا ، ويشير لكثرة الأجانب فى القاهرة ذاكرا أن بها مالا يقل عن اثنتين وسبعين لغة .

★★★

ولعل من أهم ما أورده يبرتون فى رحلته مخططا للمسجد
الحرام بمكة المكرمة • مما يفيد المهتمين بتاريخ هذا المسجد
وتاريخ الكعبة المشرفة ، ويجد المطالع لهذه الترجمة هذا
المخطط فى نهاية هذه الدراسة •

وأخيرا فقد قدمنا هذه الترجمة كاملة لم ننقص منها
شيئا وألحقنا بها ملحقا للتعليقات ، وان كانت بعض
الاشارات المهمة قد أوردناها فى الصفحات ذاتها مع اشارات
واضحة تفيد أنها تعليق من المترجم •

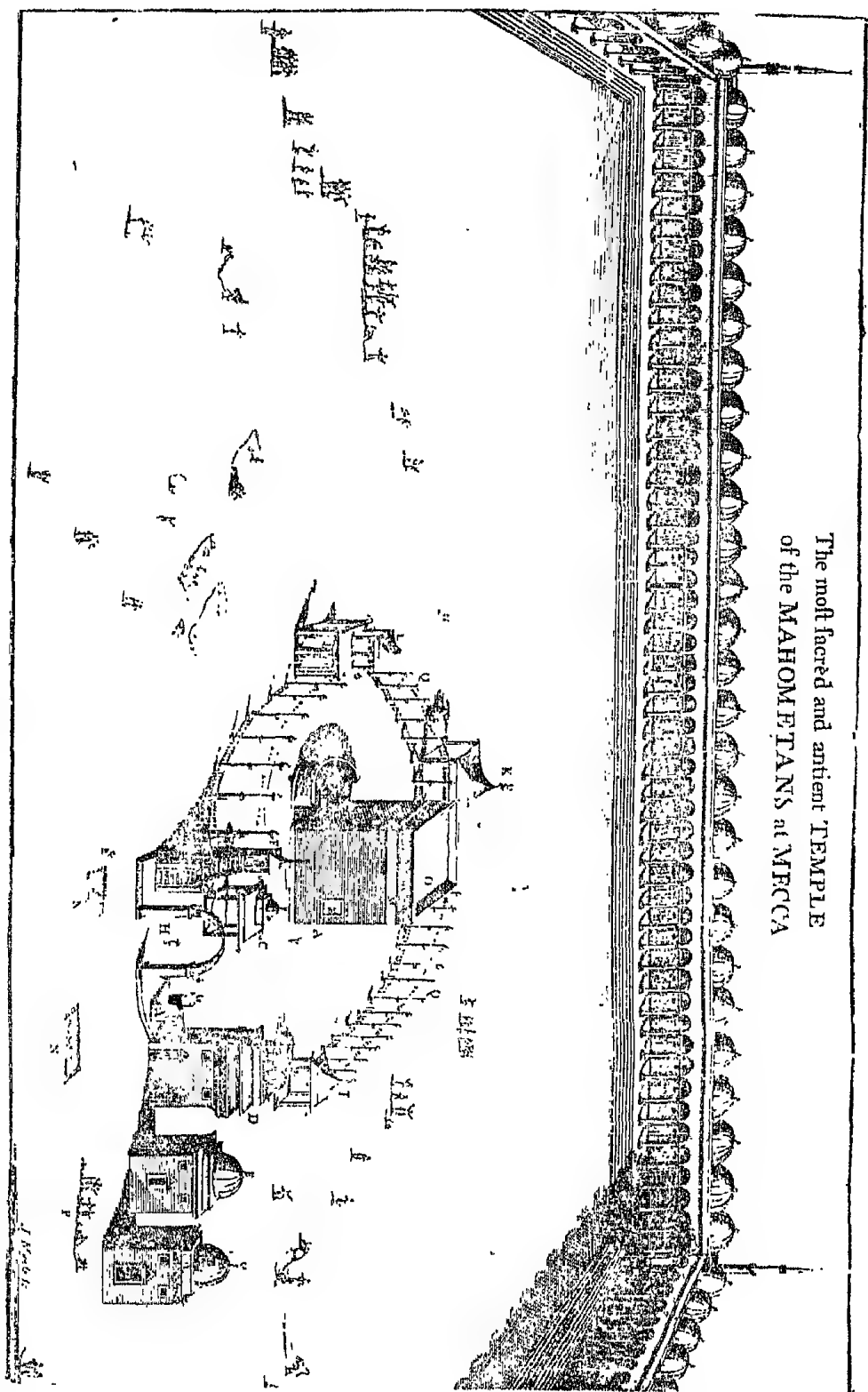
والله من وراء القصد •

د • عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مفتاح مخطط يتس للمسجد الحرام :

A	الحجر الأسود
B	الحجر الأبيض أو الحجر (بكسر الحاء وتسكين الجيم)
C	مقام ابراهيم
D	المبنى الذى يغطى بئر زمزم
E	باب الكعبة (المشرفة)
F	المنبر
G	(لم نتمكن من قراءتها فى النص أسفل المخطط)
H	البوابة القديمة
I	(لم نتمكن من قراءتها فى النص أسفل المخطط)
J	(لم نتمكن من قراءتها فى النص أسفل المخطط)
K	مقام المالكية
L	مقام الأحناف
M	كتابات مذهب
N	سجاد
O	الميزاب الذى يحمل ماء المطر المتساقط فوق الكعبة ليصبه فى المطاف
P	موضع توزيع جرار ماء زمزم
Q	مصايبح تضاء ليلا

The most sacred and antient TEMPLE
of the MAHOMETANS at MECCA



الترجمة الكاملة
لنص رحلة چوزيف بتس

الحج الى مكة

الحج الى مكة (المكرمة) فرض على كل مسلم (المترجم :
يعلم كل مسلم أنه يحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة لا مكة
ذاتها) (★) ان كانت حالته الصحية وحالته المالية تساعدانه
على ذلك ، لكن كثيرين - الآن - بدعوا فى اهمال هذه
الفريضة (القرن السابع عشر) (★★) *

فكرة عن أهم قوافل الحج :

وهناك أربع قوافل حج تصل لمكة (المكرمة) كل عام ،
فهناك - أولا - القافلة المغربية التى تصل لمكة (المكرمة)
قادمة من غرب العالم الاسلامى ، من فاس ومراكش ، حيث
يتجمع الحجاج فى هذه القافلة ويلتحقون بها من سائر بلاد
المغرب ، وهى قافلة برية فى الأساس ، وعندما يصل الحجاج
لصر يدبرون أمر وصولهم لمكة المكرمة والعودة لمصر مرة
أخرى * ويصدر أمير الحج أمرا للقافلة بالتوقف فى كل
مدينة يمر بها ، ليتيح الفرصة لمن يرغب للالتحاق بالقافلة ،
ويستقبل أهل المدن التى تتوقف عندها القافلة أمير الحج
ببهجة بالغة لمكانته الدينية ، فسعيد هو من يستطيع تقبيل
يده ، فان لم يستطع فعباةته ، ويمضى أمير الحج فى موكب
فاخر تصحبه الأعلام والطبول ، ليس هذا فحسب بل ان
النسوة يتزاحمن فوق أسطح المنازل التى يمر أمامها موكب

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم :
(★★) التعليقات بأخر الترجمة من وضع المترجم أيضا .

أمير الحج ، لرؤية المنظر البهيح ، وتضع الواحدة منهم أربعة من أصابعها على شفيتها برقة وتزغرد ، وصوت الزغردة المرحية ، يشبه هذا الصوت : يو .. يو .. يو . Yow ... Yow . وهن يكررن هذا الصوت الدال على البهجة مئات المرات .

أما قافلة الحج الثانية فتنتطلق من مسير (بكسر الميم وتشديد السين وحسرها) (Misseer or Messe) رهى القاهرة (المترجم : من الواضح ان المقصود هو مصر ، وقد كتبتها بنسب وسمي لنطق الحجاج المغاربة الدين صحبهم) (★) . ويلتحق بهذه القافلة جمع كبير جدا من الحجاج ، لأنها افضل تسليحا وبالتالى فان الحجاج الملتحقين بها يكونون فى وضع أكثر أمنا . بالاضافة الى أن هذه القافلة أكثر مدعاة للسرور لأنها منظمة ويعرف كل فرد فيها مكانه ، فليس ثمة عراق أو مشاكل البتة أثناء الطريق لمحاولة فرد أو جماعة احراز السبق أو التقدم . وتحمل هذه القافلة معها كسوة الكعبة (المشرفة) وسأقدم وصفا لبيت الله فى الصفحات التالية .

والقافلة الثالثة تسمى قافلة الشام وتضم الحجاج القادمين من تتاريا وما حولها وتركيا والأناضول وأرض كنعان ، وتصل هذه القافلة للديار المقدسة دون المرور فى مصر .

والقافلة الرابعة هى قافلة الهند (١١) وتنطلق من جزر الهند الشرقية East indies وتحمل معها بضائع قيمة ومختارة يشتري منها الحجاج من مختلف الأجناس فى مكة (المكرمة) .

وتصل هذه القوافل الأربع لمكة (المكرمة) فى وقت واحد تقريبا ، فلا يفصل بين وصولها الا ثلاثة أيام أو أربعة

(★) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

فلا بد أن تصل هذه القوافل جميعا قبل عيد القربان أو كما يقول الترك عيد البيرام (Arabic Quarban and Turkish bairam) وهو عيد الأضحى - بستة أيام أو سبعة *

وقد يتساعل بعض من عرفوا مكة (المكرمة) أو على الأقل سمعوا بها أو فرعوا عنها - كيف يمكن لبلدة صغيرة فقيرة أن تستقبل هذه الاعداد الهائلة من الحجاج وتقدم لهم ولدوا بهم الماوى والاعاشة ؟ وانى اجيبك ان اهل مكة (المكرمة) يخلون أماكنهم للحجاج ، فهذا الموسم بمثابة سوق لهم ، فالمضى يؤجر الغرفة فى هذا الموسم لفترة لا تزيد عن ستة عشر أو سبعة عشر يوما ، بمبلغ يزيد ثلاث مرات عن ايجارها طوال العام . واذا غصت مكة (المكرمة) بحجاجها وأهلها ، نصب الحجاج خيامهم حولها حيث يقيمون الى أن يرحلوا لديارهم . أما بالنسبة للمؤن فالحجاج يجلبون معهم ما يكفى الا اللحوم التى يتحتم عليهم الحصول عليها من مكة (المكرمة) ، أما الزيت والزيتون والأرز والبقسماط (البسكويت) . . الخ فالحجاج يحضرون معهم ما يكفيهم لرحلة قدومهم ورحلة عودتهم وفترة اقامتهم بمكة (المكرمة) ، بل انهم يحضرون معهم أعلافا لجمالهم فهم قد لا يجدون الا قليلا جدا من المراعى أثناء الطريق *

المنادى للحج فى الجزائر :

وعندما تكون احدى السفن جاهزة للابحار الى الاسكندرية ، ينادى المنادى فى مدينة الجزائر التى أعيش فيها معلنا ميعاد اقلاعها ، وعندئذ ينتهز كل من نوى الحج فى ذلك العام الفرصة - بسعادة - للسفر بحرا لأنه أقل ارهاقا وتكلفة من السفر برا *

ويجب أن تلاحظ أن الأتراك المنخرطين فى الوظائف لا يجرؤون على السفر للحج دون اذن الداى Dey (١٢) ،

فاذا تجاوزوا عاما تم تغريمهم عند عودتهم للجزائر راتب عام ، ومنعوا من تقاضى راتبهم ببقية العام .

وفى تلك السنة خرجت من الجزائر قاصدا مكة (المكرمة) فوصلنا لاسكندرية فى غضون ثلاثين أو أربعين يوما ، وهى فترة معقولة . وفى رحلتنا لمحنا قاربا صغيرا ذات صباح ، فطاردناه حتى الليل ، وقد رفعنا علمنا (الألوان الفرنسية French Couleurs) وقام القارب المطارد بالحدو حدونا ، فلما وصلنا لهذا القارب وجدنا عليه رجالا كلهم أتراك ومغاربة Moors ، تم جلبهم من ملطا بقصد نقلهم الى جنوه (ليجورن Leghorn) وبيعهم هناك . وقد أخبرونا انهم كانوا قد رسوا فى الصباح الباكر فى مكان معين وذهب معظم الطاقم الفرنسى على الساحل فى قاربهم ولم يتركوا الا رجلين وصبيا ، فهب العبيد وقتلوا الرجلين الفرنسيين ، وبذلك أصبحوا (أى الأرقاء) هم سادة السفينة ، لذلك فقد اعتراهم الرعب عندما رفعنا العلم الفرنسى ولما عرفوا أننا أتراك (مسلمون) تحول خوفهم الى فرح . وانتقل بعضهم رجالا ونساء وأطفالا لسفينتنا ، لكننا أقنعناهم بمختلف السبل للعودة لسفينتهم فتوجهوا مباشرة الى تونس ، وسمعنا بعد ذلك أنهم وصلوها آمنين .

الاسكندرية :

وقد مكثنا فى الاسكندرية زهاء عشرين يوما . لقد قدم لنا المؤرخون - بلا شك - كثيرا من المعلومات عن الاسكندرية ، وسأحاول بدورى تقديم معلومات عنها أرجو أن تكون مقبولة .

لا شك أن الاسكندرية كانت مدينة شهيرة جدا فى أزمنة سابقة لعظمتها وروعته ، فأثارها القديمة تجعل عقل الانسان يتخيل مدى ما كانت عليه من عظمة . لقد رأيت أثناء تجوالى بها كثيرا من الأعمال المقنطرة (الأروقة المقنطرة)

تحت الأرض ، وتصل للاسكندرية ترعة من النيل (قناة)
لتملاً آبارها ، ومن هذه الآبار تتزود الاسكندرية الجديدة -
التي تبعد عن الاسكندرية القديمة زهاء ربع ميل - وكذلك
كل السفن التي تأوى اليها - بالماء العذب * وفوهات هذه
الآبار مشيدة من الرخام *

واعتقد أن كل أسوار الاسكندرية مازالت قائمة وكذلك
بواباتها الحديدية ، باستثناء بعض الأحجار العلوية من
الأسوار التي سقطت *

وفى الاسكندرية القديمة مسجدان ، أحدهما يسمى
مسجد بن بير ديريك bin-bir direk وهى كلمة تعنى
ألف عمود وعمود ، وهو عدد الأعمدة به كما يقولون ، ولما
دخلته كان معى اسباني مرتد Spanish renegado تابع لسيد
آخر ، وتركى من جماعتنا * وقد أرانا هذا التركى عمودا
حجريا غير صقيل يبدوكجزع شجرة ميتة وبه - أى بالعمود -
عقد knots ، وأخبرنا التركى أن هذا العمود كان فى
أصله شجرة تين لعنها المسيح (عليه السلام) عندما وجدها
لا تثمر وقال : « لا يثمر فى هذا المكان شجر الى الأبد »
وأضاف التركى قائلا : « سنعرف ان كنتم مسلمين حقيقيين
أم لا * يجب أن تقفأ على بعد ثمانى خطوات أو عشر من هذه
الشجرة وسأعصب عينيكما بمناديلى ، ولا بد أن تتجها الى
الشجرة (العمود) دون أن تضلا الطريق ، فإن وصلتما
للعמוד ولمستماء مباشرة فأنتما مسلمان حقا ، وان لم تنجعا
فلمستماء بمسلمين على الحقيقة * وجرب الاسباني أولا فضل
الطريق ، ولما بدأت فى التجربة مددت ذراعى ولمست العمود
(الشجرة) بالفعل ، فأعلن التركى أننا (أنا والاسباني)
مسلمان حقا *

وفى خرائب الاسكندرية القديمة أعمدة مختلفة ضخمة
جدا وعالية ، وقد عجبت غاية العجب من أحد هذه الأعمدة

فهو مرتفع ارتفاعا شديدا بحيث لا أستطيع أن أقذف بحصاة لتصل لارتفاعه ، وسميك حتى ان ثلثه رجال او اربعة لا يمكنهم تطويقه ، وهو لامع كالزجاج وقريب فى لونه كثيرا من الرخام السماقى ويبدو كما لو كان من قطعه واحدة مضافا اليها بعض الأشغال الحجرية فى أعلاه (له تاج من حجر) ومع هذا ، فاننى مقتنع أنه مكون من عدة قطع احسن ربطها بحيث بدا كقطعة واحدة ، والا فكيف حملوه ونصبوه فى مكانه هذا . وهذه المنطقة منخفضة جدا وتستخدم كمقياس بحرى Sea-mark ، لأنه قد أقيم على قطعة أرض مرتفعة قليلا ويمكن رؤيته على مسافة غير قليلة من البر . ويسمى عمود بمباى Pompey's Pillar .

ومدينة الاسكندرية الجديدة تطل على البحر ، أما الاسكندرية القديمة فعلى مرمى سهمين من الساحل ، وتتردد سفن كثيرة من مختلف البلاد على الاسكندرية وتتزود بما تريده من مؤن لذا ، فليس فى المدينة فائض من المؤن فى أى وقت .

رشيد :

وبعد أن قضينا فى الاسكندرية حوالى عشرين يوما ركبنا البحر مرة أخرى الى رشيد (Roseet or Rosetta) التى تبعد كما أظن حوالى فرسخين عن مجرى النيل الرئيسى الذى يسمى بحر النيل « Bahr el Nile (bahr al Nil) » .

وأظن أننا قطعنا من الاسكندرية حوالى خمسة فراسخ أو ستة فى اتجاه الشرق قبل أن نصل الى مصب النيل الشهير فى البحر المتوسط ، حيث وجدنا لون الطمى يكاد يصبغ البحر المتوسط كله بلونه ، ويغير طعمه من الملوحة الى العذوبة . ولقد شربت من ماء النيل وأنا على مسافة غير قليلة داخل البحر المتوسط فلم أجده مالحا البتة ، وقد عجبت لذلك كثيرا وتأكد لدى ما كنت قد سمعته . وقد أخبرنى ثقات أن

الجنوبيين والبنادقة يحصلون فى اغلب الأحيان على الماء العذب من مصب النيل ، وهم يفعلون ذلك دون التعرض لآى خطر فليس لدى الأتراك أساطيل للدفاع عن ساحل مصر .

ولا ترجع شهرة النيل لعمقه فقط وانما لعرضه أيضا ، ولا أستطيع ان أذكر عرضه بالضبط ، لكننى أذكر جيدا اننى لم أكن أستطيع تمييز الرجل من المرأة الا بالكاد من موقعى على أحد شاطئيه - على الشاطئ المقابل ، أما عن عمقه فلا بد انه شديد ، لأن سفنا تركية كثيرة يبحر بها يونانيون تعرف بالشيكات Shykes (بالتركية : شيقا Shaiqa بتسكين الياء) وهى تشبه - الى حد ما - سفنا الانجليزية الشراعية المعروفة بالكتشات ketches (المفرد : كتش) ، وحمولة السفينة الواحدة من نوع الشيكا مائتا طن او ثلاثمائة طن ، وتصل هذه السفن الى رشيد ، ومن ثم تنسل البضائع الى بولاق عن طريق سفن او قوارب كبيرة ثقيلة الحمولة وعميقة الغاطس . وفى رشيد يتم تفريغ كل القوارب التى تصل من القاهرة والاسكندرية ، وذلك لان القوارب التى تصل من القاهرة الى رشيد لا تصلح للابحار الى الاسكندرية ، ولا القوارب الكبيرة التى تصل من الاسكندرية الى رشيد بصالحة للابحار الى بولاق ، فهى تحتاج لمياه أكثر عمقا .

عن مصب النيل :

وفى الغالب يكون مصب النيل خطرا جدا ، مما يجعل السفن تبتعد عنه لأن النيل يجرف الرمال للبحر ، مما يجعل السفن تضطر فى بعض الأحيان للانتظار عشرة أيام أو اثنى عشر يوما حتى يطهر المصب من هذه الرمال . واذا لم يتعرض هذا الحاجز الرملى لرياح عاتية تواجه سيل الرمال التى يجرفها النهر لمصبه وتشتتها ، لظلت السفن غير قادرة على الاقتراب منه وان كنت أترك الحكم فى هذه المسألة لأشخاص

أكثر علما مني . لكنني اذكر جيدا اننا اضطررنا للانتظار بضعة أيام حتى انجلي مصب النهر . وفي هذه الاثناء سقط رجل عجوز من جماعتنا مريضا وما لبث أن مات ، وفي اليوم التالي - ان لم تخني الذاكرة - سمح لنا بالمرور ، فعلق الترك قائلين ان الله أراد أن يدفن هنا ، لذا فقد كنا مضطرين للانتظار أياما عدة .

ونهر النيل معروف تماما ومشهور في سائر انحاء العالم . وللنهر مصب اخر يقع الى الشرق من رشيد بعدة فراسخ يسميه اهل البلاد دمياط . وقد كتب بعض الكتاب عن مصبات أخرى متعددة لكن هذا غير صحيح ، وان وجدت فمجرد ترع أو قنوات صغيرة لم أسمع عنها أبدا من أهل البلاد . وانني متأكد أن فرعى النيل : رشيد ودمياط ، يمثلان مصبى النيل الرئيسيين ، وهما الفرعان اللذان يمكن الملاحه فيهما .

ووقت فيضان النيل لم أكن في مصر ، بل كنت في مكة المكرمة . لكنهم يقولون ان الفيضان يأتي بالتدريج وعلى مكث ، ولا يروع السكان بل انهم يستقبلونه بفرح غامر . ويغمر ماء النيل الأرض لأربعين يوما ، وعندما ينحسر يقيم الناس الأفراح والليالي الملاح ، فبدون النيل تكون مصر صحراء تماما ، فالصحراء لا تبعد عن القاهرة أكثر من نصف يوم ، ولأن الأمطار لا تسقط على مصر الا قليلا . وبعد أن ينحسر ماء النيل عن الأرض يحين وقت الحرث والبذر واذا وضعت البذور في الأرض ، فلا يأبه المصريون بما اذا سقط المطر أم لا ، وقد لا يصدق كثيرون أن المطر يهطل في مصر أحيانا لأن معظم المؤرخين يقولون عكس ذلك ، ولكنني أوكد ما رأيته بعيني . فعندما كنت في القاهرة هطل المطر بغزارة شديدة ، وكان لسيدى بالتان (حملان) من الأقمشة الكتانية على متن سفينة فى بولاق ، وقد أفسدهما المطر فكنا مضطرين لفتح البالتين وتجفيف الأقمشة قطعة قطعة .

النيل ، سمكه وطيوره :

ولدى المصريين مقياس لقياس ارتفاع الفيضان ويقولون ان ماء النيل اذا ارتفع فوق هذا المقياس مقدار اصبع ، دل على وفرة الماء ، وان قصر عن تغطيته دل ذلك على ندرة المياه .

وفى النهر سمك كثير ، وتسبح فيه الطيور والبط والبرى والاوز * الخ وقد أخبرنى ثقات بالطريقه الطريفة النى يمسك بها المصريون بهذه البطات البرية ، فالشخص الذى يجيد السباحة والغطس ، يظهر فجأة من تحت الماء ويقبض على رقبة البطة ويسبح بها الى الشاطئ فيمسكها من رجليها * .

وقد رأيت بنفسى أحد الطيور التى تم الامساك بها من فوق صفحة النيل فى ضخامة البلشون (مالك الحزين) ، تحت عنقه ما يشبه الحقيبة الجلدية فوهتها تتجه نحو المنقار ويسمونه سقا كوش Sacca-Cush والسقا هو حمال الماء ، وهذا الطائر يشبه طائر الزقراق من حيث انه كان يزود ابراهيم الخليل باناء عندما كان يبنى الكعبة (المشرقة) وذلك كما يقولون ، وقد تذكرت قولهم هذا عندما كنت أبحر فى النيل فى اتجاه القاهرة ، فقد صاد أحد رفاقى واحدا من هذه الطيور (طيور السقا) ظنا منه أنه أوزة برية فلما علم حقيقة ما فعله حزن حزنا شديدا حتى انه ذرف الدموع ، لأن طائر السقا يجب ألا يتعرض للقتل * .

نهب الحجاج فى النيل :

أما بالنسبة للمتماسيح فلم أر أيا منها فى النيل * .

ولا يخلو نهر النيل من اللصوص الذين ينهبون القوارب ، وهم يكثرون فى هذا الوقت من العام لكثرة عدد الحجاج الذين يتخذون طريقهم مبحرين فى النيل من رشيد للمقاهرة ، ويعلم اللصوص أن الحجاج يحملون معهم مبالغ

مالية ، وقد اعترانا الخوف من مهاجمتهم لنا ، لكننا عندما أطلقنا النار من أسلحتنا ولوا هاربين •

وثمة مدن كثيرة على شاطئ النيل فبمجرد أن تنتهى من رؤية مدينة حتى ترى مدينتين أو ثلاثة • ويقولون ان المسافة بين رشيد والقاهرة الشهيرة تزيد على ٣٥٠ ميلا • ونادرا ما يرى المرء على طول الشاطئ تلالا صغيرة لا يزيد ارتفاع الواحد منها عن ارتفاع المنزل ، وينشعب نهر النيل على بعد أربعة أميال أو خمسة الى فرعين : فرع دمياط وفرع رشيد •

المصريون : لباسهم وأصولهم :

وسكان مصر خليط من المسلمين Moors والأتراك واليهود واليونانيين والأقباط الذين عرفت مؤخرا انهم جنس المصريين القدماء (المترجم : اصبح معروفا أنه لم يبق جنس واحد فى العالم لكثرة الاختلاطات والهجرات ، والعروب ، فالدم المصرى القديم اذن مبثوث فى كل الشعب المصرى كما يؤكد بتس نفسه بعد ذلك) •

وتتمثل أهم بضائع ومنتجات مصر فى الأرز والكتان والغلال بمختلف أنواعها والسكر والملابس الكتانية ، كما تتوفر الجلود (خاصة جلود الأبقار) والبلسم balsams • الخ ، أما بالنسبة للفاكهة فقليلة كالتفاح والكمثرى والكرز • الخ وان كانت هناك أنواع متوفرة كالشمام والبطيخ والخيار •

ويتوفر فى مصر كثير من بضائع الهند الشرقية كالحرير والموسلين (نوع من القماش) والكاليكو (نوع أيضا من القماش) والبهارات والبن • كما يتوفر فى مصر الحليب والزبد والجبن والزيت والزيتون • الخ •

ولا يستطيع المرء ان يميز بين المسلمين والاقباط الا من خلال العمامة فقط (★) ، فعمائم المسلمين جميعها بيضاء أما عمائم الاقباط فبيضاء مخططة بحطوط زرقاء ، وجميعهم (مسلمون و اقباط) يتحدثون لغة واحدة ، ويلبسون جميعاً (مسلمون و اقباط) عباءات سودا واسعات * ويلبس اليهود عباءات من النوع نفسه وان كانت اعرض (اوسع) وغطاء الرأس اليهودى ذو شعكل شاذ ، ويشبه الى حد ما مؤخرة القبعة ومغطى بقماش عريض * وبالنسبة للمرأة اليهودية فانها تضع على رأسها غطاء طويلا يشبه القبعات المتوجة التى ترتديها نساؤنا (فى بريطانيا) لكنها ليست مستدقة الطرف جدا عند قممتها ، كما أنها أطول ولها تنوع عند القذال (مؤخرة الرأس) ، ويبدو منظرها فى الغاية من السماجة حقاً * أما اليونانيون فلا يختلفون فى لباسهم الا قليلا عن الأتراك الا فى العائم والقبعات * ولا يجروا اليونانيون على لبس أى لباس ذى لون أخضر وان تجاسروا على ذلك مزق العامة ملابسهم أو على الأقل مزقوا الجزء الأخضر منها ، هذا اذا لم يتعرضوا للضرب بالفلكة (بالفلكة) * ورغم أن كل المسلمين ، سواء من الأتراك أو من أهل البلاد ، Moors لهم مطلق الحرية فى ارتداء الملابس الخضراء ، الا أن العادة جرت ألا يلبس أحد منهم عمامة خضراء الا اذا كان من سلالة النبی محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فهؤلاء يتمتعون باحترام أكثر من غيرهم *

البغاء وبنات الهوى (★★) :

من الصعب أن أقدم بياناً كاملاً بوقائع الفجور والانحلال، لكننى لا أستطيع أن أتجاهل الحديث فى هذا الموضوع آملاً

(★) هذا يؤكد ما ذكرناه فى تعليقنا آنفاً ، فليست هناك فروق فيزيقية بين مجموعات يعينها - (المترجم) *

(★★) لم يكن من الغريب وجود هذه الظاهرة بتلك الصورة السافرة ، اذ كان المالك - وهم الحكام الحقيقيون لمصر فى ظل الدولة العثمانية - يعتبرون هؤلاء البغايا مورداً مالياً لا يستهان به . وبعد تولى محمد على حكم مصر تعهد الاشراف والتجار =

ان يكون فى حديسي هذا ما يدفع اهل بلدى (انجلنرا)
 للاحتراض من هذا الوباء (البقاء) وان نسن التشريعات التى
 تحمل اسماب الفعال لهذا الفعل ، ونطلب من الله (عز وجل)
 ان يبارك جهودنا لقمع هذه الخطيئة التى تحطم الارواح .
 وفى مصر (فى الفترة التى زرتها) (★) هناك شوارع معينة
 ومواقع خاصة خاصة ببيوت الدعارة (١٣) - وقد تعودت
 الداعرات ان يجلسن عند أبواب بيوت الدعارة ، أو ان يتجولن
 سافرات فى الشوارع وقد ارتدين أفخر ثيابهن ، وبعضهن
 كن يلبسن قمصانا داخلية وسراويل حريرية وعباءات -
 كعباءات الرجال - من حرير ، ويمقدن حول خصورهن
 أحزمة حريرية (والجميع هنا رجالا ونساء وأطفالا يلبسون
 أحزمة حول خصورهم) ويضعن خناجر فى أحزمتهن وأغمدة
 الخناجر غالبا ما تكون من فضة * وتضع كل واحدة من
 هؤلاء الداعرات (نساء الهوى) فوق رأسها غطاء رأس من
 قليفة مزينا باللآلئ الشمينية وغير ذلك من الحلى اللامعة ،
 وتخطى النسوة الأخريات غير الداعرات رؤوسهن على الشاكلة
 نفسها * وتضعن الداعرات شعورهن فى ضفائر طويلة تصل
 الى أعقاب أقدامهن ، وقد علقن فى أطراف ضفائرن
 أجراسا صغيرة أو أشياء شبيهة تحدث أصواتا عند ارتطامها
 بأعقابهم أثناء سيرهن * ويضعن فى أنوفهن الجواهر وغير
 ذلك من أساليب التبرج ، وقد نهى النبى (محمد صلى الله
 عليه وسلم) عن كل ذلك * وهؤلاء السيدات يسرن فى
 الشوارع حاملات بيباتهن (جمع بيبة Pipe) التى يبلغ طول
 الواحدة منها أربعة أقدام أو خمسة ويدخن ، وإذا جلسن أمام
 بيوتهن عملن على الايقاع بالرجال العابرين وادخالهم لهذه

= بدفع الأموال التى كانت تجبى من هؤلاء البغايا اذا منعهن الوالى من الفاحشة ، فأمر
 الوالى باقصائهن الى مدينة فى أقصى الصعيد ، ثم عاد الام الى ما كان عليه فى
 ظل الحكومات الأجنبية حتى كانت ثورة ٢٣ يوليو التى جرمت ممارسة الدعارة *

(★) ما بين القوسين اضافة من المترجم *

البيوت • وكنت - فى غالب الاحيان - مندهشا - لأن هذه المخلوقات (النسوة الداعرات) كن قادرات على السيطرة على مشاعرهن ، فمقابل ثلاث بارات Parrah أو أربع يمكن لآى رجل أن يقضى شهوته الجنسية معهن ، لكنهن ماكرات جدا فان أية واحدة منهن لا تشجع الرجل الذى يضاجعها للبقاء معها أكثر من الوقت المحدد له ، والذى يتناسب مع المبلغ الذى دفعه ، وذلك حتى لا يضعن على أنفسهن فرصة استقبال رجل (زبون) جديد •

وعلى الان ان ازيد القراء تفصيلا عن القاهرة العظيمة ذات الشهرة التاريخية ، ففى معظم مساجدها توجد ابار تزودها بالمياه قنوات تحول اليها (الى الآبار) زمن الفيضان ، وثمة رجال معينون يجلسون عند نوافذ المساجد لتقديم الماء لكل عابر • واذا لم أكن مخطئا ففى القاهرة خمسة آلاف أو ستة آلاف مسجد بناها الأفراد أو السلطات • وبعض هذه المساجد ضخمة جدا ومتين جدا وله واجهات منمقة وبوابات فخمة ، ومآذن أسطوانية أو أبراج عظيمة ، ولبعض هذه المآذن شرفات حول أسطوانة المئذنة ، وقد يكون للمئذنة شرفتان أو ثلاث • وتزين هذه الشرفات - وكذلك المآذن - فى شهر رمضان بمصابيح كثيرة مبهرة فى جمالها •

وقبل أن نصل للقاهرة بأميال كثيرة ظهر لنا الهرمان وهما خلف القاهرة بحوالى ستة أميال أو سبعة • لقد كان ارتفاعهما مذهلا ، ويتخذ كل واحد منهما شكل قمع السكر •

وثمة مدينة على شاطئ نهر النيل على بعد ميل ونصف ميل قبل وصولنا للقاهرة ، وهى مدينة بولاق التى ترسو بها مئات من السفن المحملة بالقمح وغير ذلك • وقد استأجرنا فى بولاق حميرا أو جمالا لحمل أمتعتنا للقاهرة ، التى تعد مستودعا للغرباء والتجار مما أعطى لهذه المدينة (القاهرة) شهرتها التاريخية ، وكل ما أعدته القاهرة لاستقبال ضيوفها

هو غرف عارية ليس بها اقل انواع الأثاث أو بها أدنى أنواعه ، ومع هذا فان على كل غريب سواء أكان حاجا أم تاجرا اذا أراد استئجار غرفة أن يدفع خمسين بارا عند دخول الغرفة بالاضافة الى بارا واحدة كل أسبوع ، وليقم بعد ذلك ما شاء له أن يقيم .

واللغات المستخدمة فى القاهرة — كما قيل — لا تقل عن اثنتين وسبعين لغة .

وفيما يتعلق بالمبانى هنا فهى مع استثناءات قليلة منخفضة فيما عدا بعض الخانات hawns اذ يبلغ ارتفاع بعضها ثلاثة طوابق . وقد شيدت الخانات على نسق المساكن : أربعة أروقة يتوسطها حوش (صحن) ، وبعض الأروقة واسعة جدا لدرجة أن الرواق الواحد منها يضم ثلاث مجموعات أو أربع مجموعات من غرف لا حصر لها . وفى القاهرة بضع مئات من هذه الخانات يوجد فى أحواشها (صحنوها) مساجد صغيرة حتى يؤدى فيها الراغبون صلاتى المغرب والعشاء ، لأنه من الخطورة بمكان السير فى الشوارع بعد ايقاد الشموع (بعد حلول الليل) ، فاذا أقبل الليل تم اغلاق بوابة الخان . والآن وقد رأينا أن الخانات والمساكن الواسعة يتمتع قاطنوها بالأحواش أو الصحنون (جمع حوش وصحن) الواسعة فقد تظن أن القاهرة كلها على هذه الشاكلة ، لكن الواقع أن شوارعها ضيقة جدا لا تتلاءم مع ازدحامها بالسكان ، ففي حالات كثيرة يزدحم الناس فى الشوارع ازدحاما شديدا وأحيانا يفقد بعضهم شباشبهم أو بلغهم (جمع بلغة بضم الباء وتسكين اللام) فتتزع من أرجلهم بسبب الزحام .

ويركب الناس هنا الحمير عادة عندما يذهبون لمكان لا يبعد أكثر من ميل أو ميلين . ويتم طلب الحمار على النحو نفسه الذى يطلب الناس به العربى فى لندن ، وتركب النسوة

الحمير مباحات ما بين أفخاذهن كالرجال ، وخطوات هذه الحمير أوسع وأسرع من خطوات الخيول ، ويمكنك أن تركب الحمار مسافة ميل مقابل دفع باراً واحدة * ويقود صاحب الحمار (الحمار : بتشديد الميم) حماره ، ويصيح الحمار في كل مكان طالبين من المارة افساح الطريق خوفاً من وقوع حوادث تصادم عند المواجهة المفاجئة بين الحمير والمارة أو عند الاستدارة ، لذا فطوال النهار يسمع المرء جلبة شديدة بسبب هؤلاء الحمار الذين يصيحون باستمرار: وشك (وجهك) ! ، ظهرك ! ، شمالك ! يمينك ! *

ويرشون الشوارع بالماء - عادة - مرتين بالنهار بسبب الحرارة المتزايدة * وهناك كثيرون يتكسبون بحمل الماء في قرب من جلود الماعز ، ويحمل كل واحد من هؤلاء السقائين أنيتين نحاسيتين أو ثلاثاً لتقديم ماء الشرب للعابرين ويقدم لهم بعض الشاربين مبلغاً يسيراً half a farthing .

الأسعار :

أما ما يتعلق بالوفرة هنا فهي تدعو للعجب ، فيمكن شراء عشرين بيضة بل خمس وعشرين بياراً واحدة ، ويمكنك أيضاً الحصول على أربع عشرة أو ستة عشرة كعكة أو رغيفا (في حجم قريب من حجم أرغفتنا التي يباع الواحد منها بنصف بنس) بياراً واحدة ، وكل المؤن هنا رخيصة الثمن إذا قارنا أسعارها هنا بأسعارها في بلاد أخرى *

والماء الذي يتعاطونه هنا مائل للملوحة كثيراً ، ويتعیش كثيرون هنا على جلب الماء على الجمال من نهر النيل ، وعادة ما يسبب هذا الماء الاسهال للغرباء في بداية الأمر *

الوقود :

وثمة شح كبير هنا في أخشاب الوقود لذا ، فهم يستخدمون في أفرانهم - بشكل عام - روث الخيل والأبقار (الجلة :

بكسر الجيم وتشديد اللام) او قمامة الشوارع ، والأخشاب
التي يستخدمونها مجلوبة من بعض المناطق المحيطة بالبحر
الأسود وتباع بالوزن ، كما يباع فحم البحر Sea-Coal
عندنا بالمكيال .

وتدخل القاهرة يوميا قطعان كثيرة من الماعز ، فاذا
أراد أحدهم شراء حليب ، قام صاحب القطيع بالحلب أمامه
حتى يتأكد المشتري أنه يشتري حليباً طازجاً وجيداً .
حقيقة ان كل الضروريات تصل اليهم حتى أبوابهم ليشتروا
منها ما شاءوا فيما عدا اللحوم .

تفقيس الكتاكيت :

وللمصريين طريقة طريفة في تفقيس الكتاكيت ،
وقد يظن بعض من يقرأ كلامي هذا أنني أروى خرافة ، لكنني
أؤكد أنني رأيت ذلك بنفسى وأن ما أرويه حقيقى ، فلدى
المصرى مكان محفور تحت الأرض لا يبعد فى شكله عن الفرن
وقد فرش قاعه بالقش ويضع فيه بضعة آلاف من البيض
متراكمة بعضها الى جوار بعضها الآخر وفوق بعضها، ويتركها
لتفقس بفعل حرارة الشمس دون الاستعانة بدفع دجاجات
أو أى دفع من كائن منتج آخر، فاذا ما فقس البيض وظهرت
الكتاكيت يبيعونها للفقراء بالكيل by the measure ، فاذا ما
كبرت وسمنت بيعت الدجاجة أو الديك بما لا يزيد عن ثلاث
بارات للواحدة . وعندما كنت أبحر صاعداً فى النيل كان
لدى من حب الاستطلاع ما يجعلنى أمشى على الشاطئ عندما
تمنع الريح المعاكسة السفينة من التقدم فيربطونها بحبل الى
الشاطئ - وقد رأيت ذات مرة أحد أماكن تفقيس البيض
هذه بينما كنت أمشى .

سوق الجوارى :

وفى القاهرة سوق خاصة تعقد مرتين فى الاسبوع ، لبيع
الأرقاء المسيحيين الذين جلبهم تجار الرقيق من تركيا والذين

اقتنصهم التتر Tartars فى معظم الحالات . ومعظمهم من الجوارى (النساء) والأطفال ، لأن الرجال منهم يحجزون غالبا فى تركيا للخدمة فى السفن . ومعظم هؤلاء الرقيق البيض المجلوبين هنا للبيع موسكوفيون Muscovites وروس وبعضهم من الامبراطورية الألمانية ، وعند عرض الرقيق (النساء والأطفال) للبيع يبدوون فى أبهى زينة وفى ملابس جميلة ، حتى يحصل التاجر من جراء بيعهم على مبالغ كبيرة . والصبية الذين حلقت شعور رؤوسهم توضع خصلة شعر تحت رؤوسهم وأخرى تتدلى على وجناتهم ، وذلك عند وقوفهم للعرض فى السوق ، دلالة على أنهم ما زالوا على المسيحية ، وانه قد تم اقتناصهم حديثا . ورغم أن النسوة (الثيبات) والعذارى محجبات ، الا أن للتاجر الحق فى النظر الى وجوههن ، وأن يضع يده فى أفواههن للتأكد من سلامة أسنانهن ، وله الحق أن يمسك بنهودهن يتحسسها كيف شاء ، وأكثر من هذا ، فان له - كما أخبرونى - الحق أحيانا فى أن يعرف بطريقة غير موهلة فى التطرف ما اذا كانت الجارية عذراء أو لا !! .

وقد أكد لى بعض الأشخاص أن الرقيق المباع فى هذه البلاد لا يجبر أبدا على التحول للإسلام . وفى الجزائر ، أعترف أن اجبار الرقيق على التحول للإسلام ليس أمرا شائعا ، رغم أننى - علم الله - (قد عانيت بما فيه الكفاية منهم) لكن فى مصر وتركيا - دعنى أؤكد - أن الأمر يختلف .

فالجوارى والعبيد الذين هم فى مرحلة الشباب يلحقون مباشرة بالمدارس لتعلم القراءة والكتابة فهم مخلوقات جاهلة يائسة ، وحقيقة فانهم بعد تحولهم للإسلام . تسير أمورهم فى هذه الأنحاء على نحو أفضل ، وقد يتفوقون كأبناء سادتهم ان كانوا أذكياء . ويقال ان هؤلاء المتحولين للإسلام يلقون حظوة أكثر من الأتراك الأصلاء renegadoes

(أكثر من المسلمين بالميلاد) فهم يشغلون الوظائف العليا ويتمتعون بنفوذ واسع * وأولاد هؤلاء الترك (المسلمين) الذين يتزوجون هنا في مصر نادرا ما يعيشون في نطاق نفس الطبقة الاجتماعية ، وإنما يعيشون كما يعيش أهل البلاد ، فأولاد الذين تحولوا للإسلام يشغلون مرتبة أدنى من المرتبة التي يشغلها آبائهم ، ويفخر العبيد والجواري الذين يبيعوا هنا أن يوسف (عليه السلام) قد تم بيعه في مصر * .

ويجب أن تعلم أنه لا يوجد أتراك هنا ، فكل من يصل من تركيا عسكر انكشارية . Yeanesherres or Janizaries .

وأهل مصر - خاصة أهل القاهرة - يتسمون بالفظاظة والانفعال ، وهم ذوو لسان سليط كالداغرات ، لكنهم قلما يهتمون بالدخول في معارك ، وإن حدث فانهم يضربون بأكفهم (يصفعون) وليس بقبضاتهم * وهم بارعون في الاحتيال والغش ، خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم ولا يعرفون أساليبهم في البيع والشراء * فعندما يضع المشتري بارا في يد البائع ، فإن البائع يضعها (أى البار) - إن أمكنه - في فمه ، ثم يتناول بمكر بارا أخرى (غير جيدة) كان قد وضعها في فمه أيضا لتحقيق هدفه ، ثم يقدم هذه البارا الأخرى (غير الجيدة) للمشتري قائلا إن بارتته مغشوشة (مقصوصة Maqsus) ، وبعد أن عرفت هذه الخدعة لم أعد أسمح لأحد بوضع بارتى في فمه * .

وهم يسيئون معاملة الغرباء فمن الخطورة أن يسير الغريب في الشوارع بعد ايقاد الشموع ، بل لقد علمت أنهم ينقضون على الغريب في رائعة النهار ويسلبونه ويضربونه ضربا مبرحا قد يفقده حياته ، وكان ثمة رجل عجوز ، كان جارا لنا في الجزائر وكان يقيم معنا في الخان نفسه - تعرض لاعتداء بعض الأوغاد بينما كان يسير في أحد الشوارع الجانبية ، ولم تتحسن حالته بعد ذلك أبدا ، ومات بعد ذلك في غضون أسابيع قليلة * .

عقاب الغش التجارى :

ومع أن أهل القاهرة مولعون بغش الغرباء وخداعهم ، فانهم يعاقبون بصرامة من يطفف الكيل والميزان ، فالخبز يتم فحصه ، فاذا ما ثبت أن وزنه أقل من الوزن القانونى تم سحبه - أى الخبز - وتوزيعه على الفقراء ومعاقبة الخباز بضربه بالفلكة (الفلقة) على قدميه العاريتين بشدة ، وقد رأيت ذلك مرات عديدة . لذا ، فان بعض الخبازين يتركون خبزهم ان كانوا يعلمون أن وزنه أقل من الوزن القانونى ، ويجرون هاربين لتجنب العقاب البدنى .

وتزخر مصر بالجاموس ، والجاموسة أضخم من الثور عندنا وجميعها سوداء لكن شعرها غزير ، وأنف الجاموسة ممتد للأمام أما قرناها فيتجهان ناحية الظهر .

ولست فى حاجة للحديث عن وفرة الأرز هنا فهى أهم بلاد العالم انتاجا له كما هو معروف ، ولم أر فى حياتى أبدا مثل جموع المتسولين هنا ، فمن المألوف أن ترى عشرة متسولين أو اثنى عشر أو أكثر ، متجمعين معا فى مساء يوم الخميس وهو اليوم السابق ليوم سبتهم (يوم عبادتهم : والمقصود يوم الجمعة حيث الصلاة الجامعة الأسبوعية) ، فهذا هو يوم الاحسان .

والناس هنا ذوو عيون متقرحة وسيقان متورمة ، وبعض الفئات كالحمالين تنتفخ أجزاء أخرى من أبدانهم نتيجة حملهم أحمالا ثقيلة جدا . والحمالون عموما أقوياء جدا اذ يحمل الواحد منهم ما زنته ثلاثمئة وزنة weight أو أكثر دفعة واحدة فوق ظهره ، وأكثر من هذا فاذا لم أكن مخطئا ، فان الواحد منهم فى استطاعته حمل ما زنته خمسمائة وزنة .

ويقول أهل القاهرة : ان الله يحب مدينتهم ويرعاها بناظريه سبع مرات فى اليوم ليحفظها من كل سوء .

الطواشية (الخصيان) :

وفى بيوت معظم أسر الطبقات العليا فى مصر ، طواشية (خصيان) مؤتمنون على الزوجات ويصحبونهن أينما ذهبن سواء للحمامات العامة أو الى أى مكان آخر * ويثق سادة هؤلاء الطواشية - حقاً - فيهم ثقة كاملة ، ويحترمونهم بل ويدعونهم بألقاب السادة ، ويرجع ذلك لرغبتهم فى أن يكونوا صادقين مؤتمنين على زوجاتهم * وثمان الطواشى مرتفع لأنهم يكونون شبابا عند خصيهم ولا يبقى منهم على قيد الحياة بعد الخصى الا عدد قليل * وعادة ما ينمو جسم الطواشى نموا هائلا ، وتكون أصواتهم أنثوية ، كما يكونون مردا لا ينمو الشعر فى وجوههم *

بئر يوسف :

وفى القاهرة بئر (بئر يوسف) عميقة عمقا غير عادى وفوهتها حوالى عشرين قدما مربعا ، وثمة ممر للهبوط الى منتصفها يتخذ شكلا دائريا حول جدارها الداخلى ، ويزود بالاضاءة من فوهة البئر ، واذا لم أكن مخطئا فهناك حوالى ثلاثمائة درجة من درجات السلم عريضة وتستمر حتى منتصف البئر ، حيث يوجد نتوء دائرى توجد عليه ثيران لسحب الماء من قاع البئر ، وثمة خزان كبير يفرغ فيه الماء المسحوب ، حيث يتم سحبه بواسطة ثور آخر الى السطح ، بالطريقة ذاتها التى قام بها الثور الأول * وطريقة سحب الماء بواسطة هذه الثيران كالتالى : توجد عجلة تشبه الى حد ما عجلة الطاحونة ، ويخرج من العجلة حبلان يبعد كل حبل عن الآخر أربعة أقدام ، وعندما يدور الثور حول العجلة تدور العجلة فترجع الجرار ممتلئة بالماء فتصب فى الخزان ، ثم تهبط الجرار مرة أخرى بفعل دوران العجلة وهى فارغة وفوهاتهما الى أسفل حتى تصل للماء فتمتلئ مرة أخرى * وبهذه الوسيلة يستخرجون الماء لاستخدامه فى حماماتهم

ولرى حدائقهم . الخ . ولم أذكر هذه البئر لأهميتها السابقة فحسب ، وانما أيضا لأنهم يؤكدون أنها البئر التي سجن فيها سيدنا يوسف (نبي الله) على يد بوتيفار Potiphar .
وأخشى أن أكون قد أطلت على القارئ قبل أن أحدثه عن مكة (المكرمة) لكننى أستأذنه فى أن يصبر قليلا .

السويس :

ففى طريقنا من القاهرة الى مكة (المكرمة) وعند طرف البحر الأحمر وصلنا لمدينة السويس التى تبعد عن القاهرة زهاء يوم ، ولها ميناء ترسو به السفن المتجهة للديار المقدسة ، والسفن هنا غريبة مميزة ، فليس لها سطح ...
وهى عميقة الغاطس وتملاً بالمؤن المتجهة لمكة (المكرمة) .
ولما علمنا ونحن فى القاهرة أن هذه السفن (الموجودة فى ميناء السويس) جاهزة للاقلاع زودنا أنفسنا بمؤن تكفيها أربعة أشهر ، لتكفيها أيضا فى رحلة عودتنا للقاهرة ثم استأجرنا جمالا لتنقلنا للسويس .

وفى السويس دفعنا حوالى ستة بنسات (جروت Groat) لقاء الماء العذب ، وقد رأيت هنا عددا كبيرا من المدافع الضخمة النحاسية الجيدة وقد موهت (أخفيت) بالقرب من ساحل البحر ، لكننى نسيت أن أستفسر عن طريقة احضارها الى هنا ، وعن هدف وجودها .

الطور :

وبعد أن أبحرنا يومين أو ثلاثة من السويس رست سفينتنا فى الطور (Tor or Eltor) وهى مدينة صغيرة جدا ذات ميناء حيث أنعشنا أنفسنا بالماء ، ذلك أن كل مسافر يتحمل مسئولية حصوله على مائه . وقد حصلنا هنا على كثير من المشمش وغيره من الفواكه التى جلبت من جبل سيناء

الذى يسمونه جبل الطور او طور دوج Toor Dog وهو جبل الشريعة وأظنه على بعد خمسة أميال أو ستة من الساحل ، وللكاثوليك - كما اخبروني - دير فوق الجبل ويدفع هؤلاء الكاثوليك للاتراك مبلغا كبيرا لقاء ذلك ، ويتردد كثير من الكاثوليك على هذا الدير للزيارة .

بئر فرعون :

وبعد أن أبحرنا قليلا من الطور أردنا الموضع الذى عبر منه بنو اسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون ، ويعنى المكان الذى غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بنى اسرائيل . ويقولون انه مكان خطر جدا حتى اذا لم تهب عواصف هوجاء ، وذلك لوجود نوع من الدوامات البحرية تبتلع السفن .

وأظن أن عرض البحر الأحمر فى هذا الموضع الذى يقال ان بنى اسرائيل عبروه ، حوالى ستة فراسخ أو سبعة .

الابحار فى البحر الأحمر :

والابحار فى البحر الأحمر غير آمن ليلا ، الا فى موضع واحد لا يستغرق أكثر من ليلتين ، وذلك بسبب كثرة الصخور التى ما نكاد ننتهى من رؤية بعضها حتى نرى بعضها الآخر (ولم ألحظ أن الخرائط تقدم معلومات عنها) وأحيانا تكون قريبة من السطح حتى يمكنك القاء حصاة عليها ، وبعض هذه الصخور أضخم من غيرها ، وبعضها يبدو كجزيرة وبعضها يبرز بالفعل فوق سطح الماء وبعضها تحت سطح الماء يقليل ، لذا فقد كنا نرسو كل مساء باتجاه الريح لصخرة أو أخرى .

والبحر الأحمر ضيق حول السويس (يقصد خليج

السويس) ولما أبحرنا للطور كانت الصحراء قريبة عن يسارنا ، ولم نر أى ساحل عن يميننا •

ويعتقد أن ماء البحر الأحمر فى هذه المنطقة أشد ملوحة منه فى أى مكان آخر •

المرايط :

لقد مكثنا مبحرين فى هذا البحر زهاء شهر ، وكنا قد أبحرنا من السويس حوالى عشرين يوما فوصلنا لموضع دفن (مقام) المرايط morrabot (١٤) ويعنى المجاهد فى سبيل الله ، وربما كان مدفونا هنا منذ مئات السنين ، ولما وصلنا لموضع دفنه (فى هذه الجزيرة) صنع واحد من طاقم سفينتنا سفينة صغيرة يبلغ طولها قدمين ، وراح يمر على كل الحجاج طالبا منهم أن يضعوا الصدقات والهبات فيها على شرف المرايط أنف الذكر ، وكانوا يضعون بكامل حریتهم بعض قطع العملة ، ثم أخذوا شموعا صغيرة وزجاجة زيت صغيرة ووضعوها فى هذه السفينة الصغيرة مع المال المجموع ، ويقولون انهم يتركون كل ذلك على شرف المرايط ، وان كنت أعتقد أنهم يأخذونه كله أو معظمه لأنفسهم ، وبعد ذلك رفع الجميع أيديهم طالبين البركة من هذا الشيخ المرايط (★) ، ودعوا أن تكون رحلتهم سهلة ، ثم وضعوا السفينة الصغيرة بما عليها من مال وزيت فى البحر وليس لديهم أدنى شك أنها ستصل للشيخ المرايط فى ضريحه • • يا لهم من بؤساء جهلة ! وهذا المرايط - كما يقال - مات وهو فى الطريق الى مكة (المكرمة) وظلت ذكراه تحظى بالاحترام والتبجيل • ويحترم المسلمون هؤلاء « المرايطين » احتراماً عظيماً فاذا استطاع أحد القتلة أن يهرب الى مقام (قبر) واحد منهم ، فانه يصبح آمناً كما لو كان فى دير ، فلو استطاع أحد أن يمسه بسوء فى هذا المكان •

(★) من المفهوم أن المثقفين المسلمين لا يتضرعون لغير الله سبحانه - (المترجم) •

رابع :

وبعد ذلك ببضعة أيام وصلنا الى رابع ولبس كل الحجاج — فيما عدا النساء — ملابس الاحرام . لقد خلعوا ملابسهم المعتادة ولبس كل واحد منهم قطعتين من القماش القطنى الأبيض . احدى القطعتين تلف حول الوسط وتغطى الجزء السفلى حتى الأعقاب ، والقطعة الثانية تغطى الجزء العلوى من الجسم عدا الرأس ، ويلبس الحاج فى قدمه خفا غير مخيط Jamjamiya ، ولا يغطى الجزء العلوى من القدم عدا الأصابع ، وعلى هذا النحو يظلون حتى يصلوا الى مكة (المكرمة) ، وتؤثر الحرارة تأثيرا شديدا فى ظهورهم وأذرعهم ورجلهم . وحتى لو تعرض أحدهم للتلف فان الشريعة لا تسمح له بأن يضع فوق رأسه غطاء ، أو فوق بدنه لباسا آخر غير ملابس الاحرام حتى يتحلل من احرامه بعد ذبح أضحيته وتقديمها للفقراء . وطوال فترة لبس الاحرام التى تستغرق سبعة أيام يحرم عليهم قص أظافرهم أو قتل قملة أو برغوث ، وفى هذا — كما يظنون — سفك للدماء ، بل انهم يجدون حرجا فى نقل البرغوث أو القملة من موضع فى الجسد الى موضع آخر . وأثناء لبس ملابس الاحرام لا يفسقون ولا يفجرون ، ويضبطون أسننتهم ولا يستخدمون الا التعبيرات المهذبة وهم لا يحلقون شعورهم فى هذه الفترة أيضا .

جده :

ثم وصلنا الى جده وهى أقرب الموانىء الى مكة (المكرمة) التى لا تبعد عنها أكثر من يوم . وفى جده تفرغ السفن حمولاتها (١٥) ، وقد قابلنا الأدلاء dilleels القادمين من مكة (المكرمة) ليدلونا على كيفية أداء مناسك الحج ، وكان معظم الحجاج جاھلين بها ، وليصبحونا عند بيت الله (الكعبة المشرفة) التى يقال ان ابراهيم الخليل قد بناها .

مكة (المكرمة) :

وبمجرد وصولنا الى مكة (المكرمة) سار بنا الدليل فى شارع واسع يتوسط البلدة (مكة) ويؤدى الى الحرم ، وبعد أن أنخنا الجمال ، وجهنا الدليل الى حوض الماء للوضوء abdes ومن ثم ذهب بنا للحرم فدخلناه من باب السلام (وقد تركنا أحذيتنا عند شخص موكل بها قبل الدخول) ، وبعد اجتيازنا مدخلا استغرق اجتيازه خطوات قليلة وفد الدليل (المطوف) ورفع يديه صوب بيت الله الواقع وسط المسجد الحرام وحذا الحجاج حذوه ورددوا وراءه الكلمات التى يقولها . وعندما وقع نظر الحجاج للمرة الاولى على الكعبة (المشرفة) فاضت عيونهم بالدموع ثم طفتنا بالكعبة (المشرفة) سبعة أشواط ، ثم صلينا ركعتين ثم قادنا الدليل (المطوف) للطريق مرة أخرى ورحنا نهول وراءه تارة ونمشى تارة أخرى من أحد طرفى الطريق الى طرفه الآخر (يقصد السعى بين الصفا والمروة) . ولا أملك الا أن أعجب من الكائنات البائسة (يقصد الحجاج) الذين يبدو عليهم التأثير الشديد والعاطفة الجياشة وهم يؤدون هذه المناسك . . (وصف بيتس هذه المناسك بالخرافات) ولم أستطع الا بالكاد أن أكبح دموعى من الانهماك عند رؤية حماسهم . . (وصف بيتس حماسهم بأنه حماس أعمى ووثنى (blind and idolatrous) وبعد أن أتممنا السعى عدنا لمكان اناخة دوابنا ومعها المؤن والضروريات ، وبحشنا عن سكن ولما تيسر لنا خلعنا ملابس الاحرام ولبسنا الملابس المعتادة مرة أخرى .

وقد عمل كل الحجاج على استغلال كل وقتهم فى مكة المكرمة فى العبادة ، فلم يكتفوا بالواجبات المفروضة ، وانما راحوا يقضون كل وقت فراغهم فى الحرم يطوفون حول الكعبة التى تبلغ حوالى أربع وعشرين خطوة مربعة (؟) وقد تم تثبيت حجر أسود فى أحد أركان بيت الله وهو مطوق

بسياج فضى ، وفى كل وقت يتقدم الحجاج نحو هذا الحجر ويقبلونه ثم يطوفون سبعة أشواط ، ويصلون ركعتين ، ويقولون ان هذا الحجر كان يسمى الحجر الأسعد ويعنى الحجر الأبيض (?) ولكنسه اسود من خطايا البشر الذين يقبلونه فسمى بالحجر الأسود . ولا يخلو المطاف من الطائفين حول الكعبة ليلا أو نهارا .

وهناك من ينتظر عدة أسابيع ، بل عدة شهور ، لتتاح له فرصة الطواف ، لأنهم يقولون ان أى شخص يحظى بفرصة الطواف ، ودعا الله فان دعوته تستجاب ، وكثيرون هم الذين يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب مع ملاحظة أنهم يصلون ركعتين عقب كل سبعة أشواط . والكعبة هى مقصد عبادة المسلمين ووثنهم idol الذى يعبدونه (المترجم : المسلمون كما يعلم الجميع حتى من غير المسلمين لا يعبدون الكعبة ، وانما يعبدون الله الواحد القهار الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وهناك رحالة آخر شهير هو بيرتون الذى زار مكة المكرمة فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان بيرتون أكثر نضوجا وفهما فذكر أن أبسط بدوى يعلم تماما أنه يطوف حول الكعبة تأسيسا بإبراهيم الخليل وأنه لا يعبد الكعبة ، وذكر بيرتون أن العقائد الاسلامية المرتبطة بالكعبة أبعد ما تكون عن الوثنية ، أما الرحالة بوركهارت الذى زار مكة المكرمة فى مطلع القرن التاسع عشر فكرر فى صفحات رحلته أن المسلمين يعبدون الله سبحانه وتعالى وأنهم موحدون من الطراز الأول ، بل ان الرحالة المتعصب فارتيمما الذى زار مكة المكرمة فى مطلع القرن السادس عشر لم يشر من قريب أو بعيد أن المسلمين يعبدون الكعبة ، وهكذا يتضح أن جوزيف بتس الشاب الذى لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره قد أساء الفهم) . فالمسلمون مهما بعد بهم المكان عن مكة (المكرمة) شمالا أو جنوبا أو شرقا أو غربا لا بد أن يوجهوا وجوههم شطر الكعبة ، أما عندما يكونون عندها (أى عند

الكعبة أو بيت الله) فيمكنهم التوجه نحو آية جهة من الجهات الأصلية أو غير الأصلية طالما أن الكعبة أمامهم . وفى بعض الأحيان يكون الطائفون حول الكعبة عدة مئات فى وقت واحد ، خاصة بعد صلاة العشاء Acsham Namas أى بعد إيقاد الشموع ، ويكون الطائفون من الرجال والنساء ، إلا أن النساء يطفن فى الدائرة الأوسع بمعنى أن الرجال هم الأقرب لبيت الله ، أما النساء فيشكلن دائرة بعد دائرة الرجال ، أى الدائرة الأبعد من الكعبة ، لذا فمن الصعب أن يتمكن كل الطائفين من تقبيل الحجر الأسود ، لذا فبعضهم يرفعون أيديهم تجاهه ثم يمسحون وجوههم بأيديهم قائلين : «الله أكبر أو تبارك الله» . وإذا كان الطائفون قليلين انتهزت النسوة الفرصة فقبلن هذا الحجر وأسرعن فى الطواف لتقبيله مرة أخرى وللمسكوث أمامه فترة طويلة ، ويعطى الرجال للنساء هذه الفرصة ولا يزاحمونهن احتراماً للزمان والمكان .

وسأقدم لك الآن مزيداً من التفاصيل عن مكة (المكرمة) والكعبة (المشرفة) .

أما بالنسبة لمكة (المكرمة) فتقع فى واد غير ذى زرع (وتبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى يوم) والأقرب للدقة أنها تقع وسط تلال صغيرة كثيرة . لذا ، فهى لا تحتاج لبوابات أو أسوار ، ومبانيها كما سبق أن ذكرت عادية جداً فهى غير مهيأة لاستقبال السوافدين ، فما البال بالآلاف المؤلفة من الحجاج الذين يصلون إليها كل عام ! .

والناس هنا — كما لاحظت — بائسون ، ونحيلون جداً ويعتريهم الهزال وهم داكنو البشرة ، ويحيط بمكة — ولعدة أميال — تلال صغيرة متقاربة ، وقد ارتقيت بعض هذه التلال بالقرب من مكة (المكرمة) بحيث كان فى إمكانى رؤية مداها عدة أميال . وهذه التلال جميعاً من صخور حجرية Stony rocks تميل للسواد وتبدو على البعد كأنها أكوام قش ، لكنها جميعاً تتجه نحو مكة ، وبعض هذه التلال يبلغ محيط الواحد منها

نصف ميل ، ولدى أهل مكة بعض الخرافات الغريبة فيما يتعلق بهذه التلال ومن ذلك قولهم ان ابراهيم (الخليل) عندما شرع فى بناء الكعبة (المشرفة) أمر الله كل جبل فى العالم أن يقدم من نفسه بعض (الأحجار) لبناء الكعبة فأطاعت الجبال جميعا فأرسل كل جبل جانبا منه ماعدا جبل كرادوج Corra Dog (بالتركية : Qara Dagh) وتعنى الجبل الاسود بالقرب من مدينة الجزائر ، ويرجع سبب سواده — كما يقولون — انه (أى الجبل) لم يرسل أى أحجار من لدنه مشاركة منه فى بناء الكعبة (المشرفة) (المترجم : يعلم أى مسلم أن ذلك لم يرد فى السنن الصحيحة ، لكن من الإهمية بمكان إيراد الأفكار الشائعة ، لأنها قد تكون أشد تأثيرا فى حركة التاريخ من الحقائق الثابتة ، كما أن ذلك مفيد لدراسة الميثولوجيا العربية) ، ورغم اقتراب التلال المحيطة بمكة (المكرمة) بعضها من بعضها الآخر ، الا أن الانتقال بينها سهل .

ويوجد فوق قمة أحد هذه التلال كهف يسمونه حراء hira (بالعربية Khira) ومعناها المبارك (؟؟) يقولون ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان معتادا أن يلجأ اليه للتعبد والتأمل والصوم . وهم يعتقدون أنه فى هذا الكهف تلقى الرسول (صلى الله عليه وسلم) جانبا كبيرا من القرآن (الكريم) من جبريل (عليه السلام) وقد دخلت هذا الكهف ووجدته كهفا عاديا غير مزيق .

وخارج مكة (المكرمة) بحوالى نصف ميل يوجد تل (جبل) شديد التحدر ، وقد صنعوا درجات (سلما منحوتا) للوصول لقمته التى يوجد عليها قبة Cupda تحت صخرة مشقوقة يقولون ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) عندما كان فى الرابعة من عمره ، حمله الملك جبريل (عليه السلام) ففتح صدره (قلبه) وأخرج منه مضغة سوداء تمثل الفساد (أو خطايا البشر) ثم أغلق صدره (قلبه) فعاد كما كان

ولم يشعر محمد (صلى الله عليه وسلم) أثناء هذه العملية بأى ألم ، وقد تم هذا فى موضع هذه الصخرة التى أقاموا عليها قبة . وقد ذهبت بنفسى الى هذا المكان وصحبني كل رفاقي ، وقد صليت يضع ركعات كما صلوا .

وفى مكة ماء وافر ، الا أن العشب فيها نادر الا فى مواضع قليلة ، وثمة أنواع مختلفة من الفاكهة الطيبة كالأعناى والشمام والبطيخ والخيار ، والقرع Pumpkins (؟) وغيرها ، لكن هذه الفاكهة تجلب من موضع على بعد يومين أو ثلاثة يسمى - اذا لم تخنى الذاكرة - حبش . Habbash .

(علق بـرتون على ذلك قائلاً انها تأتى من الطائف وهى مدينة مشهورة ، ويقول الناس انها تأتى من الحجاز ويقصدون الطائف ، وليس حبش فهذا خطأ من بيتس) . والضأن يجلب الى هنا ايضا حيث يتم بيعه . والحرارة فى مكة شديدة والناس ينتقلون فى الشوارع من جانب الى جانب بحثاً عن الظل . والسكان - خاصة الرجال - ينامون عادة على أسطح المنازل تلمساً لنسمات الهواء ، أو فى الشوارع أمام دورهم . وبعضهم يضعون فراشهم فوق حصر رقيقة أمام منازلهم ، وبعضهم يضعون دككا (جمع دكة : وهى مقعد خشبى مستطيل) كتلك التى نضع فوقها البراميل فى انجلترا ، وتتماسك أجزاء هذه الدكة بحبال مشدودة شدا شديداً ، ويضعون فرشهم فوق هذه الدكك . وهم يرشون أرض الشارع بالماء قبل وضع فراشهم للنوم ، أما بالنسبة لى فقد كنت أنام - عادة - فى الهواء الطلق دون أى عطاء - فوق سطح المنزل . فقد كنت آخذ - فقط - قطعة قماش كتأتى وأغمسها فى الماء وأضعها فوقى فى الليل ، وأجدّها جافة عندما أستيقظ فأبللها بالماء مرة أخرى ، فإذا تمت ومسحوت مرة أخرى وجدتها جافة ، وهكذا قاتنى أظل أبللها طوال الليل مرتين أو ثلاثاً .

أما الآن فسأقدم لك بعض المعلومات عن المسجد الحرام ، قابوا به تبليغ سوا الى اثنين واربعين باباً (١٢٩) ، وهو عدد

غير كبير لأن الظروف - أحيانا - تضطربهم لغلقي بعضها ،
وهو قريب الشبه من دار المقاصة Royal Exchange في لندن ،
لكنه (أى المسجد الحرام) أوسع منه بعشر مرات • وكل
أبوابه مفتوحة وتفضي الممرات مغطاة بالحصى ما عدا بعض
الممرات التي رصفت بأحجار عريضة وهي الممرات المؤدية
للكنيسة المشرفة والأروقة المحيطة بالصحن - حيث الكنيسة المشرفة
- مرصوفة بأحجار عريضة جميلة ، ولها (أى الأروقة)
عقود (مقنطرة) ، وعلى الجدران الداخلية للأروقة توجد
غرف صغيرة تدور مدار كل الأروقة ، وقد أعدت هذه الغرف
الصغيرة (الخلوات) للذين وهبوا حياتهم للقراءة والدراسة
والتعب ، وهذه الطائفة تشبه إلى حد كبير طائفة الدراويش •
الدراويش :

والدراويش يعيشون حياة الزهد ويجوبون المنطقة من
أقصاها لأدناها كالرهبان المتسولين Medicants ، ويعيشون
على صدقات الآخرين ويلبسون عباءات صوفية بيضاء ،
وغطاء رأس طويلا (مرتفعا) من صوف أبيض يشبه كثيرا
غطاء رأس طوائف الرهبان (الفرير) friers فى الكنيسة
الرومانية (الكاثوليكية) Romish Church ، ويضعون على
ظهورهم فروة خروف أو جلد عنز ليتخذوها فرشاً للنوم
وأكماتهم عريضة وطويلة • وعندما يقرءون فانهم - عادة -
يجلسون متربعين فوق الأرض وعادة ما يحملون مسابيحهم
their beads حول أعناقهم أو حول أذرعهم ، بينما يحملها
آخرون فى جيوبهم • وكثيرون من الأتراك يندرجون فى
سلك الدروشة ان أرادوا صلاح أحوالهم • (يقصد بكلمة
الترك غالبا : المسلمين) فعلى سبيل المثال فان سيدى الثانى
كان له أخ أصغر منه كان يعيش حياة لاهية فاحشة جدا ،
لكن - وعلى حين فجأة - تغير حالة تغيرا هائلا ، فأطلق لحيته
ولبس عمامة خضراء كبيرة (التى لا يسمح لأحد بلبسها
الا اذا كان من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم) وأخذ يتعلم

حروف الهجاء (أ . ب . ت . ث .) وفي قبة وجيزة عرف كيف يقرأ وراح يقضى جانباً كبيراً من وقته في القراءة . وقد سخر منه رفاق اللهو القدامى لكنه تمسك بأسلوب حياة قويم رغم كل مزاحهم وسخريتهم .

والكعبة القائمة وسط المسجد الحرام مبنية مكعب يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة وعشرين قدماً ، ويبلغ طول كل ضلع من اضلاعها حوالي أربع وعشرين خطوة . والكعبة مشيدة من احجار ضخام مصقولة ، وليس بها أية عقود وهي مضطأة بكسوة من حرير سميك ، وهي - أى الكسوة - مزخرقة من فوق وسطها بشريط من حروف من ذهب ولا أذكر مضمون الكلمات المكتوبة بهذه الحروف ، وان كنت أظن أنها تشير لعبارات دينية ، ويبلغ طول الحرف قدمين أما عرضه فيبلغ بوصتين ، وبالقرب من الطرف السفلى للكعبة توجد حلقات نحاسية مثبتة به تمر منها حبال قطيفة تربط بها الأطراف السفلية للكسوة ، وعتبة باب الكعبة مرتفعة بحيث لا يصل اليه من يريد الدخول ، ومن هنا فثمة سلم متحرك يتم احضاره لهذا الغرض (أى عند الرغبة في تمكين أحد من الدخول) وباب الكعبة مغطى كله بالفضة وثمة ستارة معلقة عليه تصل للأرض ، وتظل هذه الستارة مرفوعة طوال أيام الأسبوع فيما عدا ليلة الثلاثاء ، ويوم الجمعة وهو يوم تعبدهم (يوم سبتهم their Sabbath) (★) (المفهوم أنه يوم صلاتهم الجامعة) وقد زينت ستارة الباب بزينات ذهبية ثقيلة ، وزن حوالي عشرين رطلاً ، وسطح الكعبة مسطح من جير ورمل ، وثمة ميزاب لتفريغ الماء من فوقه عند هطول المطر ، وفي هذه الأثناء يجرى الناس نحو الميزاب لينزل ماء الميزاب عليهم معتقدين أنه نعمة من السماء ، ويسعدون سعادة فائقة اذا نزل ماء الميزاب عليهم ، بل ويحاولون الشرب

(★) راجع مقدمة الترجمة لمعرفة سبب هذا الاستخدام - (المترجم) *

منه وان حدث ذلك غمرتهم السعادة ، ويلجأ بعض الفقراء
لجمعه وتقديم جزء منه للحجاج • لقاء منحة مالية •

حمام مكة :

وفي مكة (المكرمة) آلاف من الحمام الأزرق لا يجرو
أحد على صيده أو ايدائه ، وبعضه أليف لدرجة أنه يتناول
قطعة لحم من يدك • وقد قمت بنفسى كثيرا باطعام كثير منه
فى المنزل الذى أقيم به ، وهذه الحمامات تأتي فى أسراب
كبيرة الى الحرم حيث يقدم لها الحجاج - عادة - الطعام ،
فشمة أناس فقراء من أهل مكة يأتون للحجاج حاملين معهم
نوعا من الأوانى مصنوعة من السمار Rushes مليئة بالحبوب ،
ويتوسلون للحجاج طالبين منهم شراء بعض الحبوب لاطعام
حمامات النبى Hammamet metta nabee ، وقد سمعت أن
هذه الحمامات لا تطير أبدا فوق الكعبة كما لو كانت تعلم
أنها بيت الله الحرام ، لكننى أعتقد أن ذلك خطأ كبير ، فقد
رأيت هذه الحمامات تطير فى غالب الأحيان فوق الكعبة
(المشرفة) •

وتفتح الكعبة بابها الا فى يومين على مدى ستة أسابيع :
يوم للرجال وآخر للنساء ، وقد أتيح لى أن أدخل جوف الكعبة
لمرتين طوال فترة مكوثى بمكة - حوالى أربعة أشهر ، وهو
حظ سعيد لم يتح لآلاف الحجاج لأن الحجاج القادمين برا
لا يمكنون بمكة (المكرمة) سوى ستة عشر يوما أو سبعة
عشر •

جوف الكعبة :

وعندما يدخل أى مسلم للكعبة ، فإن عليه أن يصلى
ركعتين فى كل ركن من أركانها ، وأن يرفع يديه بالدعاء عقب
انتهائه من كل ركعتين • وهم يؤدون صلواتهم فى جوف
الكعبة بخشوع كامل واستغراق شديد ، فهم لا يتشغلون

بالتطلع والحملقة حولهم ، لأنهم يعتبرون ذلك اثماً ، بل انهم يقولون ان من يتطلع حوله في جوف الكعبة يصاب بالعمى لتطفله وحبه للاستطلاع ، ولم أضع هذه الاقاويل في اعتبارى فرحت أنظر حولى غير واضح في اعتبارى هذه المحاذير الأسطورية ، وأعتقد اننى لم أجد فيما رأيته شيئاً ذا بال ، فلم أر سوى عمودين خشبيين فى الوسط لمساندة السقف وقضيبا حديديا مثبتا فيهما ، علقت عليه ثلاثة مصابيح فضية أو أربعة ، أعتقد أنه من النادر اضاءتهما ، وأرضية الكعبة (المشرفة) من رخام وكذلك الجدران الداخلية ، وثمة كتابات على هذه الجدران الداخلية لم يكن لدى الوقت الكافى لقراءتها ، ومع أن الجدران الداخلية مغطاة بالرخام الا أنها مغطاة بالحريير على ارتفاع قامات الحجاج * ولا يمكث الحجاج فى داخل الكعبة الا لحظات قليلة ، فنادرا ما يمكث أحد أكثر من ثمن ساعة (half a quarter) ، لأن هناك آخرين ينتظرون دورهم للدخول ، وبينما يخرج بعض الحجاج يدخل آخرون ليحلوا محلهم ، وبعد أن ينتهى الجميع فان سلطان مكة (الشريف) لا يعتبر نفسه أهلا لتنظيف البيت ، فيقوم بعض أتباعه بغسل الكعبة وتنظيفها ، فيبدءون بغسلها بماء زمزم ، ثم بماء عذب ويتم ابعاد السلم المتحرك الذى يوضع للصعود الى باب الكعبة (المشرفة) فيتزاحم الناس أسفل الباب ليتلقوا ماء غسيل الكعبة ، أما المكانس (أو المقشاشات) التى ينظف بها بيت الله الحرام فيتم تكسيورها الى قطع صغيرة وتنثر فوق الحجاج المتجمعين ، ويحتفظ من يحصل على عصا صغيرة من هذه المقشاشات بها كذكرى مقدسة *

الكسوة :

وبأمر من السلطان العثمانى Grand Seignior (٨) يتم اعداد كسوة جديدة للكعبة (المشرفة) فى القاهرة ، كل عام ، وعندما تذهب قافلة الحجاج الى مكة (المكرمة) تخون

الكسوة الجديدة محملة على جملين ، ولا يتم تحميل هدين
الجملين بأى شيء آخر أو تكليفهما بأى عمل يقيه العام .
ويتم ارسال الكسوة من مصر بفرج غامر ويتم استقبالها
فى مكة (المكرمة) بفرج غامر أيضا لدرجة أن كثيرين
يبتكون من الفرج ، ويقوم بعض الناس بتقبيل كل جزء من
الجملين حاملى الكسوة ، وآخرون يرددون عبارات الترحيب
ويلمسون الكسوة بأيديهم ثم يمسحون وجوههم ، انهم
يفعلون ذلك وأكثر منه لاطهار مدى توقيرهم للكسوة رغم
انها لم توضع على الكعبة بعد ، وهذا يبين لك مدى توقيرهم
لبيت الله الحرام .

وعند نزع الكسوة القديمة يضع شريف مكة - بمساعدة
آخرين - الكسوة الجديدة ، ويأخذ الشريف الكسوة القديمة
لتكون تحت تصرفه ، فقد يخص بها نفسه فيقطعها قطعاً
يبيعها للحجاج الذين لا يبالون بما يدفعون لقاء الحصول على
قطعة منها . انهم شغوفون جداً بهذه المزق من الكسوة
القديمة فقطعة منها قد تساوى سلطانى Sultane ، وهو
يوازى تسعة شلنات أو عشرة ، ليس هذا فحسب بل ان
الحبل القطنى الذى يربط به الجزء الأسفل من الكسوة ،
يقطع أيضا الى قطع صغيرة ويتم بيعه . ويشترى كثيرون
قطعا من الكسوة القديمة لوضعها فوق صدورهم عندما
يوافيهم أجلهم ، وهناك من يحملها معه دائما كتعويذة ضد
الخطر وأعتقد أن السلطان الشريف (يقصد شريف مكة)
يجمع أموالا كثيرة من هذه الكسوة القديمة تساوى ما تكلفه
الكسوة الجديدة ، رغم أنهم يقولون ان العمل فى الكسوة
يستغرق عاما كاملا لا هم لكثيرين الا هو .

عود للكعبة المشرفة وما حولها :

وأريد أن أذكر مزيدا من التفاصيل عن الكعبة ، رغم أن
البعض قد يعتبرون بعض التفاصيل التى سأوردها لا أهمية

لها • فالأرض المحيطة بالكعبة (المشرفة) مرصوفة بالرخام •
وهي المطاف أى المنطقة التى يمارس فيها الحجاج شعيرة
الطواف ، ويبلغ عرضه حوالى خمسين قدما ، وحول المطاف
توجد أعمدة نحاسية يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة عشر
قدما ، ويبعد الواحد منها عن الآخر عشرين قدما ، وفوق
منتصف كل منها قضيب حديدى يصلها ببعضها ببعضها
الآخر ، وثمة مصابيح معلقة فوق هذه القضبان بأسلاك
نحاسية ثلاثية تضاء ليلا ، فالطائفون لا يكفون فى موسم
الحج عن أداء شعيرة الطواف ليلا ونهارا • وهذه المصابيح
الزجاجية تملأ لنصفها بالماء ويوضع الزيت ليطلقو فوق الماء ،
وفوق الزيت سلك نحاس حلزوني قائم فوق ثلاث قطع صغيرة
من الفلين لتجعله يطفو ، وفى وسط هذا السلك النحاسى
الحلزونى توضع فتيلة ، أو قطنا ، ويشعلونه ، فيظل مشتعلا
حتى ينتهى الزيت ، وفى كل يوم يغسلون هذه المصابيح
ويزودونها بماء جديد وزيت وقطن أو فتائل •

وفى مواجهة كل جانب من جوانب الكعبة (المشرفة)
الأربعة ، بنيت غرفة صغيرة ، فوقها غرفة أصغر فى كل
جانب من جوانبها نافذة ، وفى هذه الغرفة العلوية يؤذن
المؤذنون ويصلى الأئمة بالناس الذين يكونون فى مستوى
أدنى منهم (فالامام فوق ، فى الغرفة ، والمصلون «المأمومون»
فى المطاف والأروقة على مستوى الأرض) ، وسبب بناء هذه
الأبنية الأربعة حول الكعبة أن المسلمين ينقسمون الى أربعة
مذاهب : المذهب الأول هو المذهب الحنفى ومعظم أتباعه
من الأتراك ، والمذهب الثانى هو الشافعى الذى يتبعه أهل
الجزيرة العربية ، والمذهب الثالث هو الحنبلى وأتباعه
قليلون ، والمذهب الرابع هو المالكى ويتبعه أهل البلاد
الواقعة غرب مصر حتى امبراطورية مراكش ، وهذه المذاهب
جميعا متفقة فى الأسس ، ولا يوجد بينها الا اختلافات
بسيطة فى الشكليات ، فالأحناف - على سبيل المثال - عندما

يقفون للصلاة يلمس الواحد منهم باصبعي ابهامه حلمتى
أذنيه ، ثم يعقد يديه على بطنه (سرتة) واضعا يده اليمنى
فوق اليسرى ، ويقولون انهم يفعلون ذلك توقيرا لله سبحانه
الذين يقفون أمامه . أما أتباع المذهب المالكي والشافعي
فيقف الواحد منهم وقد سربل يديه (أى وضعهما جانبه ولم
يعقدهما) ، ويقولون أيضا انهم يفعلون ذلك توقيرا لله
سبحانه ، ولا يختلف الحنابلة عن الأحناف الا قليلا . .
ويبدو أتباع المذهب الحنفى هم الأكثر جدية فى صلاتهم .
وكل مسلم يعتقد فى أن محمدا رسول الله ، ويؤيدون خلافة
خلفائه الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، لكن الحنابلة
لا يقرون خلافة على ، ولذلك فإن أتباع المذاهب الأخرى
يعتبرونهم هراطقة (المترجم : هذا كما هو معلوم غير
صحيح ، فأتباع المذهب الحنبلى - مثلهم مثل أتباع المذهب
الحنفى والمذهب الشافعى والمذهب المالكي - يقرون خلافة
على بن أبى طالب ، ويعتفون به ويترضون عنه ، ولا يختلف
المذهب الحنبلى - كما ذكر بيتس نفسه - عن المذاهب الأخرى
الا فى شكيلات بسيطة ، والواقع أن هذه المذاهب الأربعة قد
اتخذت فى بعض الأحيان - بغير حق - ستارا للتعبير عن
الوطنية الضيقة ان صح هذا التعبير ، فلأن الامام الشافعى
عاش فى مصر معظم حياته فقد أصبح المصريون شوافع ،
ولانتشار مذهب ابن حنبل وسط الجزيرة العربية لأنه مذهب
يميل للتفسير الظاهرى ، فقد أصبح هذا المذهب فى وقت
من الأوقات ديننا ووطنية أيضا . ان صح التعبير - لكن
حقيقة الأمر أنه لا توجد خلافات جوهرية من الناحية الدينية
بين هذه المذاهب وان اختلفت مناهج بعضها ، فالمذهب
الحنفى يوسع باب الاجتهاد ، والمذهب الحنبلى - كما سبق
القول - يميل للتشدد والتفسير الظاهرى ، لكن المعصلة
النهائية لهذه المذاهب تكاد تكون واحدة . وقليل من المثقفين
المسلمين الآن هم الذين يعرفون مذاهبهم ، فهم مسلمون

فقط ، والخلافات الشكلية في الوضع أثناء الصلاة لم تعد قائمة) •

وعلى بعد حوالي اثنتى عشرة خطوة من الكعبة (المشرفة) يوجد مقام ابراهيم Sepulchre of Abraham الذى ينسب الى الكعبة - كما يقولون - يامر من الله (سبحانه) ويحيط بهذا المقام شبكة حديدية ، وهو مغطى بكسوة مزركشة جميلة ، وهو مشيد كشواهد القبور المحدثثة في بلادنا ، ويحملق الناس في هذا المقام بحب • وعلى مسافة قصيرة منه تجاه اليد اليسرى توجد بئر زمزم ويعتبرون ماءها مقدسا ، ويقدرونه تقديرا فائقا • كما يقدر الكاثوليك ماءهم as papists do theirs (★) وفى شهر رمضان يفطرون به ويقولون انه حلو كالحليب ، أما بالنسبة الى فلم أر أنه يختلف عن أى ماء آخر الا أنه يميل الى الملوحه شيئا ما • ويشرب منه الحجاج بكميات هائلة عند وصولهم لمكة (المكرمة) أول مرة ليس فقط ليظهروا أنفسهم ، وانما لتنفض أجسامهم كل الخطايا وليخلصوا ارواحهم من كل الآثام • وفى شهر رمضان يتم ملء مئات من أباريق المسجد الحرام بماء زمزم وتوضع أمام الناس - ومعها أكواب - قبيل أذان المغرب وبمجرد أن يؤذن المؤذن من فوق المئذنة - يشربون من هذا الماء بنهم قبل أداء الصلاة • وتوجد بئر زمزم وسط غرفة من الغرف الصغيرة التى أشرنا اليها آنفا والقائمة ازاء كل جانب من جوانب الكعبة (المشرفة) وتبعد عنها حوالي اثنتى عشرة خطوة أو أربع عشرة خطوة ، ويقف عند البئر أربعة رجال لسحب الماء منها دون مقابل ، ويستخدم كل رجل من هؤلاء قريبتين من جلد مريوطتين بحبل الى عجلة صغيرة ، وبينما تدور العجلة ترتفع قربة مملوءة وتهبط قربة فارغة لتتملأ من جديد ، والمسلمون لا يشربون من هذا

(★) راجع مقدمة المترجم لتعلم ان العبارة تنطوى على سخريه من الكاثوليك والمسلمين معا ، فقد كان بيتس يكن كراهية شديدة للكاثوليك - (المترجم) •

الماء فقط بل انهم - احيانا - يستحمون به بعد أن يخلع الواحد منهم ملاپسه ما عدا قطعة قماش رقيقة يغطي بها نصفه الأسفل ، ويقوم صاحبو الماء بإفراغ خمسة أوان (جرادل) أو ستة فوق رأسه ، ويجوز من الناحية الشرعية أن يغسل المرء نصفه العلوى بماء زمزم ، ولا يجوز غسل نصفه السفلى به ، فهذا لا يليق ، فبعد غسل النصف العلوى يترك الماء ليتخذ سبيله الى الأرض لا الى موضع العبورة (المترجم : ربما كان هذا من فكر العوام ، لكن لا نعرف أن فى السنة ما يمنع استخدام ماء زمزم فى أى غرض ، وهذا لا ينقضى قداسته أو مكانته الخاصة لدى المسلمين ، فماء زمزم « لما شرب له » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لكن الفكر الشعبى - على أية حال ليس متفقاً على تحريم استخدام ماء زمزم لغسل الجزء الأسفل من الجسم ، وقد رأيت حجاجاً كثيرين يغتسلون بهذا الماء دون تفرقة بين الجزء الأسفل أو الأعلى من أبدانهم) •

وباختصار فانهم غالباً ما يقصرون استخدام هذا الماء على الشرب ، والاستحمام بعد أن يستخدموا ماء عادياً لغسل عوراتهم (القبل والدبر their secret parts) بماء عادى ، بل ان حجاجاً كثيرين يحملون بعضاً منه الى بلادهم فى قوارير من صفيح أو نحاس أصفر ، ويهدوته لأصدقائهم بواقع ملء نصف ملعقة لكل منهم ، فيتلقاه الأصدقاء بامتنان كبير وفرح غامر فيرتشفون منه قليلاً ويمسحون ببقيته وجوههم ورءوسهم ، ويرفعون أيديهم طالبين من الله عز وجل أن يتيح لهم أيضاً فرصة الحج الى بيته العتيق ، وسبب توقيرهم الشديد لماء زمزم - كما يقولون - أن موضع البئر هو الموضع الذى طرحت فيه هاجر ابنها اسماعيل ، وقد سمعتهم يروون القصة تماماً كما وردت فى الفصل الواحد والعشرين من سفر التكوين Genesis ، ويتوكلون أن بئر زمزم تبعت فى موضع ركلة الطفل اسماعيل (عليه السلام) •

عرفات :

وسأخبرك الآن عن الوقت والمكان اللذين يصبح فيهما المسلم حاجا حقيقة (يتلقى اللقب المبجل : حاج) وهو الامر الذى تعمل من أجله المشقة وأنفق المال •

ان عيد الأضحى يأتى بعد شهر رمضان بشهرين وعشرة أيام • وفى اليوم الثامن بعد الشهرين أنفى الذكر يلبسون ملابس الاحرام مرة أخرى ويذهبون الى جبل عرفات الذى سمى بهذا الاسم لأن آدم - كما يقولون - قد تعرف فيه على حواء مرة أخرى، ويقولون ان حواء مدفونة فى جدة ، ويصلى المسلمون (الحجاج) الذين يصلون مكة عن طريق البحر الأحمر - ركعتين عند قبرها • ولم أملك الا الابتسام عند سماعى حكاياتهم السخيفة ، فقد لاحظت أنهم وضعوا حجرا عند رأسها وحجرا آخر عند قدميها ، وبين الحجرين مسافة طويلة تقرب من رمية سهم ، وفى الوسط مصلى صغير حيث يصلى الحجاج •

وجبل عرفات ليس ضخما ضخامة تجعله يستوعب الأعداد الهائلة من الحجاج الذين لا يقلون - كما يقال - عن سبعين ألفا كل عام ، وفى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة يعوض الله (سبحانه) هذا العدد بملائكة من عنده ينزلون على هيئة بشر - ان كان عدد الحجاج أقل من العدد آنف الذكر • لقد كان عدد الحجاج فى عرفات كثيرا جدا ، لكننى لا أظنه يصل الى سبعين ألف حاج • وثمة أحجار دالة تحيط بالجبل لتحديد حدود ما يسمى عرفة أو عرفات ، وتعتري الحماسة بعض الحجاج فيأتون الى هنا قبل الميقات وينصبون خيامهم ، منتظرين يوم عرفة أو يوم الوقفة • ولم أر فوق عرفات أية معالم يمكن وصفها ، الا قبة صغيرة فوق الجبل • وفى حوالى الساعة الواحدة أو الثانية وهو وقت الصلاة توضأنا استعدادا لها (بالتركية euile بالفارسية namaz)

لقد كان مشهدا يخلب اللب حقا أن ترى هذه الآلاف المؤلفة في لباس التواضع والتجرد من ملذات الدنيا ، برءوسهم العارية وقد يلمت الدموع وجناتهم ، وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة ، وتستمر هذه التضرعات وتلك الابتهالات طوال أربع ساعات أو خمس أى حتى يحين ميعاد صلاة العشاء أى بعد الغروب بحوالى نصف الساعة (؟) .

وانه لأمر يدعو للأسف أن نقارن ذلك بالخلافات الكثيرة بين المسيحيين .

وبعد الوقوف بعرفة يتلقى الجميع من الامام or imam لقب « الحاج » وهو لقب يظل الواحد منهم . يحمله - بفخر - حتى مماته . وبعد تلقيهم لقب « الحاج » ينفخ فى البوق trumpet ايذانا بمغادرة عرفة ، وبعد ميلين أو ثلاثة - فى طريق العودة - يبيتون ليلة ، لكن كل واحد منهم يجمع قبل الصلاة - وقبل وصولهم لمستراحهم هذا ، تسعا وأربعين حصاة صغيرة ، الواحدة منها فى حجم البندقية ، وسأذكر لك سبب ذلك ومعناه .

وفى الصباح التالى يتحركون الى منى Mina (بكسر الميم) وينطلقونها منى Muna (بضم الميم) وهو المكان الذى ذهب اليه ابراهيم (الخليل) ليضحى بابنه اسحق Isaac ففداه الله بذبح سمين (المترجم : القبول الراجح لدى المسلمين أنه اسماعيل عليه السلام) وهناك يذبحون أضحياتهم ، وتبعد منى عن مكة بحوالى ميلين أو ثلاثة . وقد رأيت هذا صخرة مشقوقه من وسطها ويقولون ان هذا الشق ناتج عن أثر سكين ابراهيم (الخليل) الذى شق الحجر بدلا من رقبة ابنه اسماعيل بفضيل توجيه الله (سبحانه) ليده بعيدا عن رقبة (اسماعيل) . انها لضربة قوية حقا !

وفى منى ينصب الحجاج خيامهم فثمة سهل واسع ،
ويقضون يوم عيد الأضحى (عيد القربان) ، وبعد ذلك
يذهب كل حاج فى اليوم الأول ليرمى سبع جمرات (حصوات)
على العمود الأول ويقصدون بهذا رجم الشيطان وأفعاله ،
لأنهم يقولون أثناء الرجم : « اننى أرجم الشيطان وحزبه »
وثمة عمودان آخران متقاربان يرجمون أحدهما فى اليوم
الثانى ، والآخر فى اليوم الثالث . وأثناء توجهى للرجم
قابلنى حاج فكه وقال : « لابد أن ترجم بسرعة من فضلك ،
لأننى قد فقأت عيني الشيطان لتوى » .

ويجب أن تلاحظ أن أهل البلاد يجلبون الى هذا المكان .
قطعانا كثيرة من الأغنام لبيعها ، فيشتري كل حاج خروفا
ويضحى به ، ويقدمون بعض أضحياتهم لأصدقائهم وبعضها
للفقراء ، ويأكلون ما تبقى ، وبعد ذلك يحلقون رؤوسهم
ويخلعون لباس احرامهم ويلبسون ملابس أخرى ويحیی
بعضهم بعضا قائلين : « عيدكم مبارك » ويتبادلون القبلات .

ويقضون هذه الأيام الثلاثة فى فرح واحتفالات ،
ويصبح الليل نهارا بسبب وفرة المصابيح المضاءة ، ويطلقون
البنادق ، وتمتلئ السماء بالألعاب النارية ، لأنهم يعتقدون
أن كل ذنوبهم قد ذهبت أدراج الرياح وأنهم - اذا ماتوا -
دخلوا الجنة مباشرة (بغير حساب) اذا لم يرتدوا عن دينهم ،
أما بالنسبة للمستقبل فان الله يكافئ حسناتهم بعشرة
أمثالها ، وان أى حاج يعود لحياة الفسق يعتبره الآخرون
شريرا فاسقا . (المترجم : المعروف أن الله سبحانه يكافئ
الحسنة بعشرة أمثالها ، ومن فعل سيئة لا يجزى الا بمثلها)
وقد كتب بعض المؤلفين أن الحجاج - بعد عودتهم لبلادهم -
يصبحون صارمين ويقسون على أنفسهم كأن يحملقوا لمدة
طويلة فى قراميد محماة أو قوالب حديد ساخنة حتى يفقدوا
القدرة على الابصار ، وهدفهم من ذلك ألا تقع أعينهم على

ما حرم الله ، بعد رؤيتهم للعبه (المشرفة) لكنني حميته
لا اعرف أحدا فعل ذلك •

وخلال الايام الثلاثة التي يقضونها في منى - يفكر
الواحد منهم ، اذا لم يكن واهنا ضعيفا ، في زيارة الدعية
(المشرفة) مرة واحدة على الأقل • انهم يشدون الرحال الى
هناك بحماس فائق لالقاء نظرة جديدة على بيت الله الحرام ،
فاذا ما راوه انفجرت عيونهم بدموع الفرح وبعد الطواف
والصلاة يعودون ثانية الى منى وبعد انتهاء أيام عيد الاضحى
الثلاثة Byram يعودون جميعا حاملين خيامهم الى مكة
(المكرمة) مرة أخرى •

ويقال انه بعد مغادرة الحجاج منى الى مكة (المكرمة)
يرسل الله رخات من المطر لغسل القدر والروث المتبقى من
ذبح الأضاحى ، كما يرسل الله الملائكة لتحمل الحصى
(الجمرات) الذى رمى به المسلمون رمز الشيطان ،
وتعيدها الى أماكنها قبل موسم الحج التالى ، لكنني متأكد
أننى رأيت الحصوات التى رجمت فى الموسم السابق ملقاة
مكانها على الأرض عند الأعمدة التى يرمز المسلمون بها
للشيطان •

وبعد العودة لمكة (المكرمة) يمكثون هناك زهاء عشرة
أيام أو اثنى عشر يوما ، حيث تعقد سوق كبيرة تباع فيها كل
بضائع الهند ، كما تباع فيها أحجار كريمة للخواتم
والأساور • الخ المجلوبة من اليمن ، وكذلك بضائع الصين
والمسك وغيرها من الأشياء الغريبة • انه الوقت الذى ينشغل
فيه الحجاج بالشراء لأنهم يعتقدون أنه من الأمور غير الشرعية
أن ينشغلوا بالبيع والشراء قبل اتمام الفريضة • ويقوم كل
حاج الآن بشراء كفن Kafan وهو عبارة عن قطعة كتان
رقيقة ليكفن فيها ، وهم يغمسونها فى ماء زمزم ، وتلك

ميزة قد لا تتاح لهم في الجزائر او غيرها - ويحرصون على حمل هذا الكفن معهم أينما ذهبوا ، بحرا أو برا فإذا ماتوا كفنوا به .

وفي المساء السابق لمغادرة مكة المكرمة لا بد من طواف الوداع ، فيدخل المرء من باب السلام فيطوف قدر ما يستطيع وبعض الناس يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب (المترجم : طواف الوداع ، كطواف القدوم ، كطواف دخول المسجد : سبعة أشواط) وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله ويبعدون حقيقة غير راغبين في مفارقتة ويشربون من ماء زمزم حتى الامتلاء ويتراجعون الى باب الوداع ووجوههم صوب بيت الله ، وبيت الوداع هذا مواجه لباب السلام ، وعند خروجهم من باب الوداع يعقدون أيديهم تجاه بيت الله ، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع ، ويظلون في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون الى الله حتى يصلوا بيوتهم .

وقبل أن أغادر مكة (المكرمة) سأعرفك بحوار دار بيني وبين تركي بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في الحرم المكي .

فالحجاج يقضون هذا الوقت الذي يصل الى ساعة ونصف الساعة - أو جانبا كبيرا منه في الطواف ، ثم يجلسون فوق الحصر ليريحوا أنفسهم . وهذا ما فعلته ، وبعد أن جلست للحظة تمددت أخيرا لفرط التعب لأريح ظهري ، وكانت قدمي - كأقدام الآخرين - صوب البيت لكن بعيدا عنه (المترجم : ان كان هذا الوضع عن عمد وسوء طوية فهو بلا شك من اساءة الأدب ، أما ان كان عفوا وغير مقصود فلا شيء فيه ، وفي الريف المصري كان الجيل السابق - كما سمعت بنفسى - يتحرون ألا تكون دورة المياه في اتجاه الكعبة المشرفة رغم بعد المسافة) وقد سألتى التركي الجالس الى جانبي عن بلدي فقلت له : ائني « مغربي » فقال : « من أي

يلاد المغرب ؟ » فقلت : « من الجزائر » فقال : « لقد تعبت كثيرا وتكلفتم كثيرا حتى وصلت هنا ، لكنك بمدك قدميك نحو الكعبة المشرفة ترتكب عملا غير وقور !؟ » *

ويوجد هنا مغاربة (أو مسلمون Moors) كثيرون يكسبون رزقهم ببيع نماذج مصغرة للمسجد الحرام للغرباء ، وبتقديم خدمات للحجاج * ويوجد هنا عدد من الأفندية (جمع أفندي Effendies) أو المتعلمين يقرءون القرآن الكريم وهم جلوس على مقاعد مرتفعة (دكك جمع دكة ، وتسمى في الحجاز أحيانا مركزاز) ويفعل الشيء نفسه بعض الحجاج المتعلمين أثناء اقامتهم بمكة (المكرمة) *

وتحت غرفة الأحناف (مقام الأحناف) التي ذكرتها في الصفحات السابقة يتجمع الناس عادة في فترات ما بين الصلوات ويجلسون متربعين في حلقات Cross-legged وقد تبلغ الحلقة عشرين أو ثلاثين ، ومعهم زوجان من المسابح الضخام جدا ، كل حبة من حباتها في حجم القبضة ، ويمررون حبات المسبحة بينهم الواحد تلو الآخر ، الحبة تلو الحبة ، طوال الوقت وهم يرددون عبارات دينية * وقد انخرطت أنا نفسى معهم فى هذه اللعبة التى تسبب بهجة طاغية للأطفال ومع هذا فقد أظهرت من مظاهر التقوى ما فيه الكفاية (المترجم : هذا يدل على عدم فهمه لعبارات التسبيح التى كان يرددوها هؤلاء المسبحون ، وعلى أية حال فإن استخدام المسابيح وما الى ذلك ليس أمرا ضروريا للتسبيح) *

وثمة دراويش هنا يتكسبون بسبب احراقهم للبخور أمام الجالسين ، ويكثرون أيام الجمع ، وفى جميع المساجد يمر هؤلاء الدراويش وقد حمل الواحد منهم المبخرة باحدى يديه وكيس البخور باليد الأخرى - بين صفوف المصلين

الجالسين بينما الامام يخطب وهم يفعلون ذلك بهدوء ودون
جلبة .

ورغم قداسة مكة (المكرمة) فهي كغيرها من المدن
لا تخلو من بعض مظاهر الفساد (المترجم : قد يكون هذا
القول نابعا من تعصبه لأنه لم يذكر لنا شيئا من ذلك ، وثمة
رحالة أوروبي آخر سبقه هو فارتيمافى مطلع القرن السادس
عشر لم يذكر لنا أى مظهر من مظاهر الفساد ، وان ألمح
بمرتون لشيء كهذا فى القرن التاسع عشر ، لكن المؤكد أن
الاصلاحيين السلفيين قد بذلوا بعد ذلك جهدا كبيرا للقضاء
على البدع ومظاهر الفسق ، وهذا الأمر لا يخلو على أية حال
فى أى تجمع بشرى) أما من ناحية النظافة فهي مساوية
للقاهرة ، ولكن اللصوص لا يتورعون عن السرعة حتى فى
الحرم ذاته .

وسأقص عليك قصة أو قصتين ، الأولى عن متسول فى
مكة (المكرمة) لا يستخدم الا عبارة واحدة لحث الناس على
التصدق له : من تصدق فانما يتصدق على نفسه Her ne
yapparsen gendinga ، وبالتركية (har na yaparsan Kendina)
فمر عليه أحد جيرانه غير الصالحين فأراد أن يتأكد من هذا
القول فقدم للمتسول كعكة بها سم كصدقة ، فأخذها المتسول
شاكرا ووضعها فى جواله واعتقد الجار السيئ أنه سيسمع
خبر موت المتسول بعد قليل ، لكن حدث أن ابن هذا الجار
كان يلعب ورأى المتسول يأكل فطلب منه قطعة من الخبز
فقدم له المتسول الكعكة نفسها التى تصدق بها أبوه ، فأكلها
الطفل ومات . ولدى من الأسباب ما يجعلنى أصدق هذه
القصة لذا ، فان علينا أن نشجع الاحسان الى الفقراء .
متسول آخر كان دائما يستخدم هذه العبارة فى تسوله : من
قدم شيئا بيديه وجده بعد الموت Herne wearersen clingla, o
gidder sennela وهذا يؤكد أيضا أن هؤلاء المسلمين يعتقدون
بأنهم يكافأون باحسانهم .

والآن وقد تناولت توفير المسلمين الشديد للقرآن
(الكريم) وطريقة تعبيدهم في مساجدهم وحجهم الى مكة
(المكرمة) وطريقة تعبيدهم هناك سأضيف فقط اننى قرأت
اخيرا ترجمة انجليزية للقرآن الكريم ، ذكر مترجمها في
مقدمته أنه من غير المسموح به للامة من المسلمين قراءة
القرآن ، وأن عليهم أن يعيشوا حتى مماتهم لا يعرفون الا ما
يقوله علماءهم (شيوخهم) ، وهو قول أرفضه جملة وتفصيلا ،
فقراءة القرآن (الكريم) * متاحة للجميع ، بل وينظرون
بتوقير لكل من يحسن قراءته والقضية - كما هي عندنا -
هل يحسن المرء القراءة أم لا * والمسلم يدفع ثمانية دولارات
أو عشرة مقابل نسخة من القرآن مع العلم أن دولارهم
يساوى حوالى شلنين وثلاثة بنسات .

وبعد أن حدثتك عن حج المسلمين لمكة المكرمة The Turk's
Pilgrimage to Mckka وعن مناسكهم ، فاننى أوشك الان ان
أطوف طواف الوداع وأغادر مكة المكرمة ، وقد رويت
مارويت لك صادقا آمينا وأتحدى العالم أن يتهمنى بالكذب .

★★★

ترتيبات القوافل :

وبعد أن استأجرنا جمال النقل ، خرجنا من مكة (المكرمة)
لكننا دفعنا كثيرا لاستئجار الجمل كما لو كنا نستأجره من
مكة لمصر ، وهى المسافة التى تستغرق حوالى أربعين يوما
بمعنى أننا دفعنا حوالى خمسة جنيهات استرلينية أو ستة *
واذا حدث ومات الجمل أثناء الطريق أمدنا الجمال بجمل آخر ،
وعلى هذا فان هؤلاء الجمالين القادمين من مصر - مع القافلة -
الى مكة ، يحضرون معهم عديدا من الجمال الاحتياطية
لوعورة السير ليلا مما يؤدى لموت جمال كثيرة أثناء الطريق ،

ناذا حدث وسقط جمل فمن النادر ما يكون قادرا على النهوض مرة أخرى ، واذا نهض فانهم يفقدون الأمل في قدرته على مواصلة السير أو حتى قدرته على أن يكون صالحا للعمل مرة أخرى ، لذلك فاذا سقط الجمل رفعوا عنه حملة وذبحوه kill it فيأكل لحمه الفقراء في القافلة • وقد أكلت أنا نفسى لحم الجمل فوجدته حسن المذاق ومفيدا للصحة • واذا اعتري جمل التعب (ولم يذبحوه) تركوه مكانه •

مغادرة مكة (المكرمة) :

لقد كان اليوم الأول الذى خرجنا فيه من مكة (المكرمة) خاليا من النظام تماما ، فكان ثمة هرج ومرج ، أما فى اليوم الثانى فقد عمل كل شخص على احراز السبق وبسبب هذا حدثت معارك ومشاجرات بين الحين والآخر ، لكن بعد أن أخذ كل شخص مكانه فى القافلة احتفظ به وسارت الأمور منتظمة حتى وصلوا للقاهرة • وهم يجعلون أربعة جمال فى المقدمة ويربطون بعضها ببعض لتكون قطارا kitar ، ويسمون الحملة كلها قافلة ، فالقافلة اذن مقسمة الى قطر (بضم القاف والطاء) أو قطارات ، ولكل قطار اسمه ، وهو يتكون من آلاف الجمال ، ويسير كل قطار وراء قطار آخر ، وكأنهم فى حملة عسكرية ، وعلى رأس كل قطار قائد مسئول يجلس فى تختروان يحمله جملان أحدهما أمام الآخر والتختروان مغطى بقماش شمعى وفوقه قماش سميك ، وان كانت زوجة هذا القائد معه جعلوا لها هى الأخرى تختروان على شاكلة تختروان زوجها ، وعلى رأس كل قطار جمل يحمل أموالها (كنوزها) • الخ ، ويضعون لهذا الجمل جرسين : جرس على كل جانب من جانبيه ، وهو - أى الجرس - فى ضخامة جرس السوق عندنا بحيث أن صوته يسمح من مسافة بعيدة • وثمة جمال أخرى يضعون حول رقبتها أجراسا ، وبعضها حول أرجلها ، كتلك الأجراس التى يضعها الحمالون عندنا حول رقاب خيول المقدمة ، فتظل هذه الأجراس تدق طوال

الليل بالاضافة للأجراس التى يحملها السائرون على الأقدام والجمالون ، ويكون لرنينها صوت محبب يجعل الرحلة تمضى بهيئة • وهم يقولون ان هذه الموسيقى تجعل الجمال نشطة ، وبهذه الطريقة تسير الأمور منتظمة حتى يصلوا للقاهرة ، وبدون هذا الانضباط يمكنك أن تتصور الفوضى التى يمكن أن تحدث لهذه الجموع الهائلة •

المشاعل :

ويشعلون بالليل شعلا مرفوعة على قضبان لهداية القافلة الى الطريق ، ومما يذكر أن القافلة تقطع رحلتها ليلا معظم الوقت تجنباً لحرارة الشمس الشديدة نهاراً • وهذه المشاعل تشبه الى حد ما المواقد الحديدية (الأواني الحديدية التى يتم اشعال النار داخلها) فهم يضعون فى هذه الآنية الحديدية بعض الأخشاب الجافة التى خصصوا بعض الجمال لحملها (الأخشاب الجافة أو الحطب) ، وقد أوكلوا بالمشاعل أشخاصا يزودونها بهذه الأخشاب كلما أوشكت النيران على الانطفاء • ولكل قطار مشعل يخصه ويدل عليه ، وبعض القطارات لها اثنا عشر مشعلا أو أكثر من ذلك أو أقل • ولهذه المشاعل أشكال مختلفة وأعداد مختلفة ، فبعضها بيضاوى كالبوابة ، وبعضها ثلاثى triangular أو على شاكلة حرف N أو M • • الخ وذلك حتى يستدل كل شخص على قطاره من خلال تأمل هذه المشاعل ، بمعنى أن لكل قطار مشعلا أو مشاعل مميزة • ويكون حامل المشاعل فى مقدمة القطار ، وترفع المشاعل وتثبت عند توقف القافلة ، كل مشعل يبعد عن المشعل الآخر بمسافة • وتحمل هذه المشاعل فى النهار أيضا لكن بغير نار فيستدل الحجاج من أشكالها وأعدادها على قطاراتهم كما يستدل العساكر على كتائبهم بأعلامها • وبدون ذلك ، لابد أن الفوضى كانت ستدب بين هذه الأعداد الغفيرة • وكانت القافلة تتوقف كل صباح

وينصب أفرادها خيامهم ليستريحوا لعدة ساعات • وعند
انزال الحمولة من فوق الجبال يقودها الجمالة ليسقوها
ويقدموا لها العلف •• الخ وكنا نساعدهم في ذلك فليس
لدينا ما يشغلنا •

وبمجرد توقف القافلة كان عملي هو اشعال نار صغيرة
واعداد القهوة ، وبعد تناولنا لوجبة صغيرة وشرينا للثهوة
نستلقي لأخذ قسط من النوم • وبين الساعة الحادية عشرة
والساعة الثانية عشرة نسلق طعاما للغداء ، وبعد أن نتناوله
نستلقي مرة أخرى ونظل نائمين حتى حوالى الساعة الرابعة
بعد الظهر ، وعندما تدق الطبول يكون معنى ذلك أن نجمع
(نهـد) خيامنا وأن نحمل جمالنا لمواصلة الرحلة ، وتستغرق
عملية الاستعداد والتحميل ساعتين ، فتقف الجمال متهيئة
للمسير كرة أخرى ، وفى وقت صلاة المغرب gega nomas
وكذلك وقت صلاة العشاء acshan nomas تتوقف القافلة
لأداء الصلاة (يا لهم من دقيقين فى أداء صلواتهم !) وتصل
القافلة سائرة حتى صباح اليوم التالى ، وإذا كان الماء
شحيحا قمنا بالتييم abdes وإذا وجدوا صعوبة فى
إناخة جمال القافلة وتحميلها مرة أخرى ، أخروا صلاتى
المغرب والعشاء لليوم التالى ، لكنهم يؤدونها على كل حال
(المترجم : من الواضح أن هذا الرحالة غير مدرك أنه يجوز
للمسافر أن يجمع صلاتين جمع تقديم أو جمع تأخير وفقا لما
يتيهأ له من ظروف) •

أما بالنسبة للمؤن فقد زودنا أنفسنا من مصر عند
قدومنا بما يكفيننا لرحلة الذهاب لمكة (المكرمة) والعودة •
وفى مكة (المكرمة) قدرنا ما يكفيننا ليوم وقسمنا ما معنا
ليكفى أربعين يوما هى المدة التى تستغرقها الرحلة لمصر •
وإذا وجدنا - ونحن فى مكة - أن ما معنا لا يكفى مدة الرحلة ،
اشترينا ما ينقصنا منها (أى من مكة المكرمة) ، ويقدم
مندوبو السلطان (العثمانى) Grand Scignior الماء كصدقة

للفقراء الذين يسرون مع الحملة على أقدامهم طوال الطريق ،
فهناك كثيرون يقطعون رحلة الحج دون أن يكون معهم أى مال
معتمدين على صدقات الحجاج الآخرين •

أيرلندى رفض ترك الاسلام :

ويحمل كل حاج مؤنه معه وكذلك ماءه وفراشه • • الخ
وعادة ما يتجمع كل ثلاثة أو أربعة معا لتناول الطعام ،
ويدعون فى بعض الأحيان أحد فقراء الحملة لتناول الطعام
معهم • وكان يوجد أيرلندى مرتد *renegado* (المترجم :
يقصد أنه تحول للاسلام) أخذوه صغيرا جدا لدرجة أنه لم
يفقد دينه المسيحى فقط بل ولغته الانجليزية أيضا • وهذا
الرجل عانى من العبودية ثلاثين عاما فى اسبانيا وفى السفن
الفرنسية (؟؟) *French gallies* ، لكنه بعد ذلك تحرر
وعاد للجزائر ، وكان الناس ينظرون له كرجل صالح تقى
متدين لأنه لم يترك العقيدة الاسلامية رغم تعرضه للغواية
كى يتركها • وكان بعض جيرانى الذين قصدوا للحج فى
العام نفسه الذى حجبت فيه مع سيدى قد عرضوا على هذا
الايرلندى المرتد (المترجم : يقصد المسلم) أن يتكفلوا
بتكاليف حجه ان خدمهم أثناء الرحلة ، فقبل العرض سعيدا ،
وأذكر أننا عندما وصلنا الى مكة (المكرمة) قال لى بعاطفة
جياشة ان الله (سبحانه) نجاه من جهنم على الأرض ويقصد
بهذا فترة عبوديته فى اسبانيا وفرنسا ، وأن الله (سبحانه)
قد مكنه من الوصول الى جنته على الأرض ويقصد بهذا مكة
(المكرمة) • وقد عجبت كثيرا لفرط حماسه وايمانه ،
لكننى أشفقت عليه •

ويحملون الماء فى قرب جلدية ويثبتونها على جوانب
جمالهم ، وقد يحدث ألا تصادف ماء فى الطريق طوال يومين
أو ثلاثة وأحيانا أكثر من ذلك ، لكنه بات معروفا أن الجمل
مخلوق يتحمل العطش ، فאלله جلت قدرته قد هياه للسفر فى

صحراء شبه الجزيرة العربية الشاسعة ، وبدون هذه المقدرة يكون عسيرا - ان لم يكن مستحيلا - أن يقطع هذه الفيافي الجرداء . ولكل مجموعة تقيم فى خيمة مكان مخصوص لقضاء الحاجة ، وهو عبارة عن أربعة أعمدة طويلة مثبتة فى أربع زوايا ، بين كل عمود وآخر ثلاثة قدام أو أربعة ، ومحاطة بقماش الخيام ، وذلك لأن المسلمين (كما قلت قبل ذلك) يعتبرون من الأمور المعيبة أن يراهم أحد وهم يتبرزون أو يبولون . ومن ناحية أخرى فانهم لو ذهبوا بعيدا جدا لقضاء حاجتهم فقد يضلون الطريق لخيامهم عند العودة .

البدو والقافلة :

وأثناء هذه الرحلة تسبب لصوص البدو فى المتاعب لبعض الحجاج لتسللهم للقافلة عدة مرات ، وذلك أن هؤلاء اللصوص ينقضون على أطراف القافلة ويخطفون ، خصوصا الحجاج البعيدين عن بقية زملائهم ليجعلوا منهم خدما أو مساعدين للجمالة . وعندما يرى هؤلاء البدو حاجا قد استغرق فى النوم فكوا رباط جملة من الأمام ومن الخلف ويقوم أحد اللصوص بقيادة الجمل بعيدا ، بينما يكون الحاج نائما فوقه ، ويقوم اللص الآخر - فى الوقت نفسه - بسحب الجمل التالى ليربطه بجمل آخر بدلا من الجمل المسروق حتى لايتوقف اذا شرعت القافلة فى المسير فتتوقف كل الجمال التى وراءه بطبيعة الحال مما يعنى اكتشاف اللصوص .

وبعد سرقة الجمل براكبه ، يوقظون الحاج النائم على بعد مسافة معقولة من القافلة تجعلهم بعيدين عن الخطر ، وفى بعض الأحيان يقتلونه فورا ، وفى أحيان أخرى يسلبونه ويتركونه يعود للقافلة عاريا .

المدينة (المنورة) :

وفى حوالى اليوم العاشر من هذه الرحلة السهلة بعد

خروجنا من مكة (المكرمة) دخلنا المدينة (المنورة) ، حيث
دفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) * رغم أننى أعتقد أن
المسافة بينهما فى خط مباشر فى الطريق الى مصر لا تزيد
عن يومين أو ثلاثة - وذلك حتى يتمكن الحجاج من أداء
الزيارة وقضاء يومين ثم الرحيل فى اليوم الثالث ، والمسلمون
الذين يأتون لمكة من الجنوب ، كمسلمى الهند وغيرهم لا يزورون
المدينة (المنورة) وإنما يكتفون بزيارة مكة (المكرمة)
لبعدها عن خط سيرهم ، لكن الحجاج القادمين من تركيا
وبلاد التتر (ترتريا) ومصر وأفريقيا يظنون أن من
واجبهم زيارتها *

والمدينة (المنورة) ليست الا بلدة بائسة يحيطها سور
وبها مسجد كبير لكنه لا يقارن بالحرم المكى * وفى أحد
أركانه مبنى مساحته حوالى أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة
مربعة ، به نوافذ ضخمة مغطاة بشبك نحاسى ، وداخل هذا
المبنى الصغير بعض المصابيح والزينات وهو مقنطر arched
وقد قيل انه يوجد مالا يقل عن ثلاثة آلاف مصباح حول قبر
الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو قول غير صحيح ، اذ
لا يوجد - كما أعتقد - أكثر من مائة * اننى أتحدث عما
أعرفه ، ورأيت رأى العين ، وفى الوسط يوجد قبر محمد
(صلى الله عليه وسلم) ، وثمة ستارة حريرية تحيط بقبره
(صلى الله عليه وسلم) وهى ستارة غير غالية الثمن وغير
جميلة ، ولا يسمح للحجاج بالدخول الى هذه الغرفة فلا أحد
يدخلها الا الاغوات (الطواشية) للاشراف على المكان
وتنظيفه وايقاد المصابيح ، وكل ما يتاح للحجاج هو أن
يتعلقوا بالشبابيك وأن ينظروا من خلال الشبك النحاس
ويتوسلون لهذا النبى بحماس فائق ووجد شديد (المترجم :
المسلمون لا يتوسلون للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما لربهم

ورب النبي ، وكل ما يفعلونه أمام قبر النبي هو السلام عليه ، وصراعة تنىء من الهراى (★) وقد اخرج سيدى منديله الحريرى من صدره بينما كان واقفا يدعو أمام قبر الرسول •

وثمة قصة يرويها بعضهم أن كفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجود بسقف المسجد بفعل جذب حجر مغناطيسى له • لكن صدقنى انها قصة كاذبة • فعندما نظرت من خلال الشبك النحاسى فقد رأيت - كما رأى الحجاج الآخرون - أن الستائر التى تغطى القبر لا تصل الى منتصف المسافة من الأرض الى السقف أو حتى العقود المقنطرة ، لذا فمن غير الممكن أن يكون كفنه (صلى الله عليه وسلم) معلقا بالسقف • ولم أسمع أحدا من المسلمين يقول ذلك أو شيئا قريبا منه ، وبالإضافة لقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) هناك قبور خلفائه ، وقبر آخر قد تم اعداده لعيسى بن مريم (عليه السلام) عندما يعود مرة أخرى ، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح (عليه السلام) سيعود مرة أخرى بلحمه ، ويظل أربعين سنة قبل أن تقوم الساعة ليؤكد صدق الدين الاسلامى ويقولون ان مخلصنا our Saviour لم يصلب وانما الذى صلب هو شخص آخر يشبهه •

ويتم تزويد المدينة (المنورة) بالمؤن من الحبشة على الساحل الآخر للبحر الأحمر ، فمن الحبشة تأتيهم السفن محملة بالقمح وغير ذلك من الضروريات ، وهى سفن غريبة لم أر لها مثيلا ، فأشرعتها من حصير ، كالحصير الذى يستخدمونه فى بيوتهم ومساجدهم •

(★) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

مغادرة المدينة المنورة :

وبعد أن قضينا فى المدينة (المنورة) يومين ، غادرناها فى اليوم الثالث ، ولما قطعنا عشرة أيام أخرى قابلنا عددا كبيرا من البدو قدموا لنا كميات وافرة من الفاكهة خاصة الزبيب ، ولا أدري من أين أتوا بها • ولما وصلنا بعد ذلك بخمسة عشر يوما لمصر قابلنا جمع غفير وقد حملوا جمالهم بالهدايا التى أرسلها الأصدقاء والأقارب للحجاج ، كالحلوى وما الى ذلك • لكن بعض هؤلاء القادمين أتوا بقصد الربح أى لبيع المؤن الطازجة للحجاج والاتجار معهم •

وقبل وصولنا للقاهرة بحوالى عشرة أيام وصلنا لجبل طويل شديد الانحدار يسمى عقبة Ackaba ، عادة ما يهاب الحجاج - كثيرا - تسلقه ، وقد تعبت الجمال البائسة عند اجتيازه وسقط كثير منها هنا ، وكانت غير مربوطة (بعضها بالبعض الآخر) فرحنا نحثها برفق على المسير ، لكنها كانت تتحرك ببطء شديد بل وتتوقف غالبا • وقبل أن نصل لهذا التل لم ألحظ أى انحدار (تدرج) ولما وصلنا لقمته لم نر الا سهلا •

وقد تجاوزنا جبل سيناء ليلا ، ولم أره فلا بد أننى كنت نائما •

ولما كنا على بعد سبعة أيام من القاهرة قابلنا جمع غفير يزيد عن بضـيع مئات ، وقد أتوا للترحيب بأصدقائهم وأقاربهم • لكن ظلام الليل كان دامسا فكان من الصعب الالتقاء بمن يريدون • ولما بدأت القافلة فى التحرك راحوا ينادون بصوت عال على معارفهم وأقاربهم فاستطاعوا بهذه الوسيلة الالتقاء بهم •

ولما أصبحنا على بعد ثلاثة أيام من القاهرة ، أحضروا لنا جمالا كثيرة محملة بماء النيل لنشرب ، وقبل أن نصل

قاهرة بيوم وليلة أتى آلاف المصريين للقيانا وكانوا
بتهجين بشكل غير عادى . لقد استغرقت الرحلة من مكة
كرمة الى القاهرة سبعة وثلاثين يوما بالاضافة لثلاثة أيام
وقفنا فيها ، فتللك اذن أربعون يوما كاملة كما أخبرتكم
نفا . وطوال الطريق لم نر - الا نادرا - زروعا خضراء
لا سمعنا تغريد طير أو رأينا حيوانا ، فلا شئ سوى الصحراء
الحجارة ، باستثناء قرية اجتزناها ليلا كان بها بعض
لأشجار والبساتين ، وقد قطعنا واديا يقال له نهر النار
Attash al wai ، وكانت الحرارة فيه لا تطاق حتى ان الماء
ى القرب كان أحيانا يجف بفعل الحرارة الجهنمية ، لكنه
كان من حسن حظنا أننا عبرناه أثناء هطول المطر واعتبر
لحجاج هذا عوننا من الله وشكروا الله شكرا كثيرا .

الوصول للقاهرة ، والطاعون :

ولما وصلنا للقاهرة وجدنا الطاعون يحصد الناس حصدا
حتى لقد قيل : انه قضى على ستة آلاف خلال أسبوعين .

رشيد :

لقد أسرعنا بمغادرة القاهرة متجهين الى رشيد ، ومن
رشيد تابعنا الى الاسكندرية ، حيث وجدنا سفينة من الجزائر
على استعداد لنقلنا الى هناك .

الطاعون فى الاسكندرية :

لقد كان الطاعون مستقرا فى الاسكندرية فى ذلك
الوقت ، وقد صعد الى ظهر السفينة بعض الأشخاص المصابين
به فسرى الطاعون بيننا ، وقد شفى بعض ممن أصيبوا
وألقينا فى البحر عشرين جثة ممن ماتوا بسببه ، وحقيقة

فقد اعترانى الرعب ، ورحت أمل أن أسترد عافيتي في
الجزائر ، معتقدا أنني لو عشت حتى أصل للجزائر فقد
أهرب من الإصابة به ، لكن بمجرد وصولنا لسواحل الجزائر
حاصرني الطاعون لكنني نجوت من الموت بفضل عناية الله .
لقد ظهر الطاعون تحت ذراعي وظهرت البثور المصاحبة له
على ساقى . وبعد ذلك تورمت جدا ، وكنت راغبا في شقها
(اخراج ما بها من صديد) ولكن سيدي قال : ان وقت فتح هذا
الخراج (الدم الكبير) لم يحن بعد ، ونصحتني عبد اسباني -
وكان جارا لي - أن أشوى بصلة وأغمسها في الزيت وأضعها
على الدم ففعلت ذلك ، وفي اليوم التالي أصبح الدم جاهزا
للفتح ، فشقه سيدي (★) ، وتم شفائي بفضل من الله ، ولن
أنسى فضله أبدا ما حييت ، كما لن أنسى فضله ورحمته التي
شملني بها لعودتي من مكة (المكرمة) .

(★) ذكر جوزيف بتس كيف أنه التقى في الاسكندرية ببشار انجليزى كان زميل
دراسة له وطمانه على أسرته ، وقد أرسل معه بتس خطابا وهدايا لوالديه - (الناشر) .

التعليقات

(١) اعتمدنا اعتمادا أساسيا فى تغطية المعلومات المتعلقة بحياة
جوزيف بتس على ما أورده الرحالة العالم رتشارد بيرتون
Richard Burton فى الملحق الخامس لكتابه : A pilgrimages to
Al-Madina & Mecca, Vol 3, p. 359.

(٢) بالإضافة الى درب الحج المعروف بالكبس (بكسر الكاف
وتسكين الباء) وهو الطريق الذى يسلكه حجاج اليمن خاصة على
طول جبال الحجاز واليمن التى تحفها سهول من ناحية الشرق وتهامة أو
ساحل البحر الأحمر غربا ، وهو طريق تتوفر به موارد المياه •

Burckhardt, J. L. : Travels In Arabia, p. 447,

(٣) أما الأول فهو لمودوفيكو دى فارتيما المعروف بالحاج يونس
المصرى الذى قام برحلة فى الفترة من ١٥٠٣ الى ١٥٠٩ زار فيها مصر
والشام والحجاز واليمن وفارس والهند وأندونيسيا وهناك ما يشير
لوصوله لاستراليا ، ثم عاد الى البرتغال بحرا عن طريق رأس الرجاء
الصالح ووصف أثناء عودته سواحل شرق أفريقيا وبعض جزر المحيط
الأطلسي ، ومع أن فارتيما كان ايطالى المولد الا أنه كان يعمل لحساب
البرتغال •

The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia desert,
Arabia Flix, in persia, India and Ethiopia ... Translated to English
by J. W. Jones.

وصدرت ترجمتها العربية كاملة فى سلسلة الألف كتاب الثانى ،
الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٣ •

(٤) عرفنا قليلا عنه من خلال إشارة د • أبو القاسم سعد الله :
تاريخ الجزائر الثقافى • ص ١٣٩ • الجزائر ، الشركة الوطنية ،
١٩٨١ •

(٥) من الكتب الجيدة التى تناولت حروب الجهاد البحرى بعمق
كتاب : تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجرى
(١٦ - ٢٠ م) / د • أبو القاسم سعد الله • الجزائر ، الشركة الوطنية ،
١٩٨١ • ج ١ •

(٦) انظر حاشية (٣) .

(٧) شارك بيتس في الحرب ضد أسبانيا في وهران وتحدث عن الأسبان بغير تعاطف وذكر أنهم - أى الأسبان - كثيرا ما كانوا يغيرون على القرى المجاورة ليلا ليأخذوا معهم الرجال والأطفال والنساء والماشية وكل شيء .

بيتس : حقائق عن الاسلام (وقد نقلنا النص آنف الذكر من : تاريخ الجزائر الثقافي تأليف د . أبو القاسم سعد الله . ص ١٩٥ - الحاشية) .

(٨) غمر اليهود سواحل المغرب بعد سقوط غرناطة وازدهرت تجارتهم ، وعملوا بالصرف المهمة كالصياغة والحياكة ، وكان منهم المترجمون ، ووصلوا لمناصب مهمة ، انظر : د . أبو القاسم سعد الله : مرجع سابق ص ١٤٦ . كما اتجهوا الى تركيا وكان لهم نفوذ تجارى واقتصادي واسع وشجعوا حركة الجهاد البحرى ضد أوروبا . انظر على سبيل المثال ما فعلته أسرة ناسى اليهودية فى اسطانبول فى بول كولز : العثمانيون فى أوروبا . القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ترجمة د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ .

(٩) عبد الرحمن عبد الله الشيخ : دور المسلمين فى انهك الاقتصاد الاسبانى فى القرنين : السادس عشر والسابع عشر . مجلة جامعة الملك عبد العزيز (الآداب والعلوم الانسانية) / المجلد الأول ، ١٩٨٨ (١٤٠٨ م) . مركز النشر العلمى بالجامعة .

ونظرا لأن مثل هذه الأفكار قد تكون غير مألوفة للقارئ العام ، فإننا نورد هنا فقرات مطولة من هذا البحث مع اشارة لبعض المصادر الأوربية المهمة . لقد تخصص الباحث المشهور شارلز لى Charles Lea فى الكتابة عن محاكم التفتيش والمسلمين الاسبان ، وراح يجوب الأرشيفات الأوربية وغير الأوربية ، وأصدر مجموعة كتب وبحوث قوية فى هذا المضمار أهمها :

The Moriscos of Spain : the Conversion and Expulsion, Philadelphia, Leo Prothers, 1901.

ومن خلال وثائقه واحصاءاته نخلص الى أن اخراج المسلمين من الأندلس عقب سقوط غرناطة لم يكن مطلبا شعبيا ، فقد كان التلاحم

بين المسلمين والشعب الاسباني قويا جدا على المستوى الاجتماعى .
(زيجات متبادلة مثلا) والمستوى الاقتصادى (رخص الأيدي العاملة المسلمة مثلا) وتشابهه فى العادات والتقاليد بحكم طول التعايش ، ويؤكد شارلز لى أن الكراهية على المستوى الشعبى كانت موجهة ضد اليهود الذين لم يسمح لهم بالبقاء لحظة واحدة بعد سقوط غرناطة بينما لم يتقرر بشكل نهائى طرد المسلمين الا فى القرن السابع عشر ، ويقرر Charles Lea أن اليهود الذين استقبلتهم الدولة العثمانية راحوا يشجعون من خلال مواقعهم وأموالهم كل نزاع بين المسلمين وغيرهم ، وكانوا يمولون أحيانا الحرب ضد أسبانيا ، وكانوا وفقا لما يقوله الباحث بول كولز Paul Coles يعملون على ألا تنتهى المواجهة بين المسلمين وأوروبا المسيحية . وقد يكون فى قول هؤلاء الباحثين بعض المبالغة لكننا هنا نورد آراء باحثين أوروبيين .

Encyclopaedia of Religion and ethics, Art : Usuary. (١٠)

وانظر أيضا :

عبد الرحمن عبد الله الشيخ : حركة اصلاح دينى أوروبية لم تلق الاهتمام الكافى : مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود ، ١٩٨٧
(١٤٠٧ هـ) المجلد ١٤ / العدد الثانى .

(١١) هناك أيضا قافلة الحج اليمنية المعروفة بالمكبسى . راجع حاشية ٢ .

(١٢) الدائى (بتشديد الدال) كلمة تركية تعنى العم وهو حاكم الجزائر شبه المستقل عن الدولة العثمانية أى أن وضعه كان أشبه بوضع محمد على ، فى مصر بعد ذلك (بدءا من ١٨٠٥) وقد طرد اليراس (بتشديد الياء) وهم البحارة وكذلك الوجق وهم السلطة الباشا العثمانى (الرالى) واستقلوا وعينوا منهم الدائى أو العم - حسب التقاليد العثمانية القديمة ، وأصبح هو الحاكم المستبد والباشا أيضا ، باعتباره الممثل الشرعى للسلطان ، فقد رضى السلطان بهذا الوضع فكان يكتفى بإصدار فرمان بتثبيت من اختاره الوجق . وقد بدأ نظام الدائيات هذا فى الجزائر منذ أواخر القرن السابع عشر .

أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(١٢) يحدثنا بيتس فى كتاب آخر له (حقائق عن الاسلام) عن شيوع اللواط بين الطوائف العثمانية خاصة ويعلل ذلك بأن أفراد

السلطة لم يكونوا يحضرون زوجاتهم معهم ، بل ويذكر أن السلطة كانت تنظم عملية الفساد هذه خدمة للبحارة وغيرهم .

عن أبى القاسم سعد الله ، مرجع سبق ذكره .

(١٤) أثناء عودة الرحالة بوركهارت من ينبع الى القاهرة ذكر انه توجد أمام جبل حسانى (بتشديد السين) عدة جزر من بينها جزيرة تسمى الحرة ويقطنها بنو عبس ، ٠٠ ويوجد على جزيرة أخرى قريبة من الحرة قبر لأحد الأولياء اسمه الشيخ حسن الم رابط ، وحول القبر بعض المباني والأكواخ المنخفضة حيث يقيم أفراد من أسرة بدوية من قبيلة هتيم وهى المسئولة عن حراسة الشيخ حسن الم رابط ، وعادة ما يكون مسار السفن بالقرب من هذه الجزيرة ، حيث يرسل ملاحو السفن قوارب محملة بالقليل من الذرة لحراس القبر وقد يرسلون بعض السمن والكك والبن ، وذلك لأن البحارة العرب يعتقدون أن الشيخ حسن يحمى هذه البحار . ومن العادات التى نكرها بوركهارت أنهم عندما مروا بهذه الجزيرة خبز القبطان رغيف خبز كبيراً وأعطى لكل واحد لقمة صغيرة ليأكلها ترحماء على روح الشيخ حسن الم رابط

Burckhardt, pp. 428-29.

(١٥) سلك بيتس كما أخبرنا الطريق البحرى من الجزائر الى الاسكندرية ، لكن هذا ليس هو الطريق الوحيد ، فهناك بالطبع القافلة البرية التى أشار اليها اشارات عابرة ، وتنطلق هذه القافلة من مقر إقامة سلطان المغرب ، فتسير ببطء الى الجزائر فتونس فطرابلس ، ومن هناك تتابع سيرها على الساحل المصرى مارة بالاسكندرية او تتخذ اتجاه وادى النطرون قاصدة القاهرة مباشرة وفى بعض الأحيان تستمر القافلة المغربية بعد أداء الحج حتى القدس ثم الى القاهرة ومن ثم للمغرب ، وتجمع القافلة أثناء سيرها كل الراغبين فى الحج من المناطق التى تمر بها .

Burckhardt, pp. 253-254.

(١٦) فى أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر ، قدر الرحالة فارقيما الذى زار مكة المكرمة سنة ١٥٠٣ أبواب المسجد الحرام بحرالى تسعين باباً أو مائة باب ، وفى بداية القرن التاسع عشر حددها الرحالة بوركهارت ١٨١٥م بتسعة عشر باباً حول كل باب أبواباً صغيرة ، وربما كان الاختلاف فى عدد الأبواب راجعاً لبعض التوسعات العمرانية بالاضافة الى أن بعض الرحالة يعد البوابات الرئيسية فقط ويترك ما حولها من أبواب أو منافذ ، بينما آخرون يدخلونها فى الحصر ، وفيما يلى - على أية حال - ما أورده بوركهارت :

الاسماء القديمة	الاسماء الحديثة
باب بنى شيبية	باب السلام : يتكون من ثلاث بوابات صغيرة
باب الجنائز	باب النبي : من بابين صغيرين
باب السدة	باب العباس : كان باب العباس يوجد في مواجهة
باب بنى هاشم	باب على
	باب الزيت
باب بازان	باب العشرة : بوابتان
	باب بغلة : بوابتان
باب بنى مخزوم	باب الصفا (خمس بوابات)
باب أحياد	باب شريف (بوابتين)
باب الرحمة	باب المجاهدية (بوابتين)
باب الشريف عجلان	باب زليخة (بوابتين)
	باب أم هانئ
باب الحزورة	باب الوداع (بوابتين)
باب الخياطين	باب ابراهيم (المقصود ابراهيم الخياط الذي
أو باب بنى جمح	كان يمتلك مكانا امامه وليس ابراهيم عليه السلام)
	باب العمرة أو باب بنى سهم
باب عمرو بن العاص	باب عتيق
أو باب السدة	
باب العجلة	باب الباسطية
	باب القطبي (نسبة الى قطب الدين صاحب
	كتاب تاريخ مكة)
باب دار الندوة	باب الزيارة (٣ بوابات)
باب مدرسة عجلان	باب الدرية

وفي الوقت الحاضر ، توجد بوابات أخرى كبوابة عبد العزيز وغير ذلك . (المترجم) .

(١٧) تحظر الشريعة الإسلامية اراقاة الدم فى المسجد الحرام أو فى منطقة الحرم المحيطة به ، وعادة ما تحترم هذه الميزة للمسجد الحرام ، لذلك فان كثيرين من الهاربين لسبب أو لآخر يلجأون للمسجد الحرام ، لكن هذه الميزة لم تعطها الشريعة لأى مسجد آخر أو مكان آخر ، ومع هذا فان التاريخ الإسلامى وكذلك الحديث شهد أن السلطات لم تراع ذلك - لأسباب أمنية - فجنود محمد على كانوا يقتلوعن الهاربين ويقبضون عليهم وهم متعلقون بأستار الكعبة *

Burckhardt, 7th appendix, p. 465,

(١٨) هـ السلطان محمد خان الرابع بن ابراهيم الأول ١٦٤٨ - ١٦٨٧ ، وقد قام الوزير الثانى (القائمقام) قره مصطفى بالاتفاق مع العلماء على عزله ، وبقي فى العزلة الى أن توفى ١٦٩٢ . وكانت الأوضاع فى عهده مضطربة ، وخاضت الدولة حروبا مع جمهورية البندقية والنمسا ، كما كانت الأمور فى البلقان غير مستقرة .

محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقى .
ص ٢٨٩ - ٣٠٤ .

اقرأ فى هذه السلسلة

أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغامضة	ليسترديل راى
الرواية الانجليزية	والتر آلن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	قرانسوا دوماز
الانسان المصرى على الشاشة	د ٠ قدرى حفى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	ارلج فولكف
الهوية القومية فى السينما الهويية	ماشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكروال
الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى القوع الأدبى	د ٠ محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د ٠ عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	أنور المعداوى
القوة النفسية للأمرام	بيل شورل وأدنبيت
فن الترجمة	د ٠ صفاء خلوصى
تولستوى	رالف نى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضممار	
الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سيدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د . قاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوه
التطور الحضارى للإنسان	جاكوب براونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سينسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
المصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	د . غبريال وهبة
التشكيلى	
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	شوكت الربيعى
١٨٨٥ - ١٩٨٥	
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د . محيى الدين أحمد حسين

ج . دادلى اندرو	قطريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
طائفة من العلماء الأمريكيين	الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد
د . السيد عليوة	حرب الفضاء
د . مصطفى عنانى	ادارة المصراعات الدولية
مجموعة من الكتاب اليابانيين	الميكروكمبيوتر
القدماء والحدثين	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلين ل . باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سـوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م پورا	التجربة اليوتوتانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
رونالد د . سميسون	العلم والطلاب والمدارس
فورمان د . اندرسون	الشارع المصرى والفكر
د . أنور عبد الملك	حوار حول التنمية الاقتصادية
والتر روستو	تبسيط الكيمياء
فريد س هيس	العادات والتقاليد المصرية
جون بوركهارت	التذوق السينمائى
آلان كاسبيار	التخطيط السياحى
سامى عبد المعطى	البذور الكونية
فريد هويل	دراما الشاشة (٢ ج)
شاندرام وىكراماماسينى	الهيرويين والايستز
حسين حلمى المهندس	نجيب محفوظ على الشاشة
روى روبرتسون	صور اقريقية
هاشم النحاس	
دوركاس ماكلينتوك	

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية أسماك الزينة
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

المفكر المقارن عنده الاغريق
قضايا وملامح الفن التشكيلي
التشذية في البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
للكون
الارهاب

اخناتون
القبيلة الثالثة عشرة

التوافق النفسي

الدليل البيلوجرافى

لغة الصورة

الثورة الاصلاحية في اليابان

العالم الثالث غدا

الانقراض الكبير

تاريخ النقود

التحليل والتوزيع الأوركسترالى

(الشاهنامة (٢ ج)

الحياة الكريمة (٢ ج)

كتابة التاريخ في مصر

بيتر لورى
بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بيتر
ديفيد الدرتون
جمعها : جون ر . بورر

وميلتون جولد ينجر

أرنولد توينبى

د . صالح رضا

م . ه . كنج وآخرون

جورج جاموف

د . السيد طه أبو سديرة

جاليليو جاليليه

أريك موريس ، آلان هو

سيريل الدريد

آرثر كيسلر

توماس ا . هاريس .

مجموعة من الباحثين

روى أرمز

ناجى متشيو

بول هاريسون

ميكائيل المبي ، جيمس لفلوك

فيكتور مورجان

اعداد محمد كمال اسماعيل

الفردوسى الطوسى

بيرتون بورتر

جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد مري
تراقيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد/ موني براح وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	أدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبner
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
المحلة الصليبية الأولى	جوناثان ريلي سميث
التمثيل للسينما والتلفزيون	توني بار
العثمانيون في أوروبا	بول كولنر
صناعة الخلود	موريس بيريراير
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتينا	الحاج يونس المصري
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر في ألف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاختر
سفر قامه	ناصر خسرو علوي
مصر الرومانية	نفتالي لوييس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الاداب الاسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)	أحمد محمد الشنواني
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

اعداد / سوريال عبد الملك
د . ابرار كريم الله
اعداد / جابر محمد الجزار
هـ . ج . و لـ
ستيفن رانسيما
جوستاف جروتياوم
ريتشارد ف . بيرتون
آدم منتر
ارنولد جـزل
بادي اونيمود
برنسلو مالاينوفسكى
جلال عبد الفتاح
محمد زينهم
مارتن فان كريفلد
سوندارى
فرانسيس ج . برجين

حديث النهر
من هم التقار
ماستريخت
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
المحلات الصليبية
حضارة الاسلام
رحلة بيرتون ٣ ج
الحضارة الاسلامية
الطفل ٢ ج
افريقيا الطريق الآخر
السحر والعلم والدين
الكون ذلك المجهول
تكنولوجيا فن الزجاج
حرب المستقل
الفلسفة الجوهرية
الاعلام التطبيقى

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف .
- مكتبة الهيئة .
- المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة .
- منافذ التوزيع فى أماكن وفروع الثقافة الجماهيرية وهى
كما يلى :

- الوادى الجديد . . الداخلية والخارجة .
- البحيرة .
- المنيا .
- هياط .
- قارسكور .
- القليوبية (بنها) .

مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٢٧/١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4535 — 1

جوزيف بتس الذي تسمى بأسم الحاج
يوسف رجالة شاب وقع في الأسر في الجزائر
وقام مع مولاه برحلة إلى الديار المقدسة،
ومر بمصر فكتب عنها أكثر مما كتب عن
الحجاز، والكتاب وثيقة مهمة عن أحوال
مصر والحجاز في القرن السابع عشر.